

النزاع والتخاصم

فيما

بين بنى أمية وبنى هاشم

تأليف

تقى الدين المقرئى

٧٦٦ - ٨٤٥ هـ

إعداد وتعليق

صالح الوردانى

الهدى
للإعلام والسر

اسم الكتاب: النزاع والتخاصم
المؤلف: تقى الدين المقریزی
الناشر: الهدف للإعلام
رقم الإيداع: ٩٩/١١٥٦٠
الترقيم الدولي: 977-5751-15-2

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم وتعريف

كتاب النزاع والتخاصم للمقریزی، هو الكتاب الذى تقدمه للقراء الكرام، نظراً لأهميته التاريخية، وقيمه الدينية. فمؤلفه هو،

أحمد بن على بن عبدالقادر بن محمد بن إبراهيم بن تميم بن عبدالصمد بن أبى الحسن بن عبدالصمد بن تميم التقى بن العلاء بن المحيوى الحسينى العبيدى البلعبكى الأصل، القاهرى المولد، أبو العباس، المعروف بالمقریزی نسبة لحارة فى بعلبك، تعرف بحارة المقارزة.

انتقلت عائلة المقریزی إلى القاهرة من بعلبك فى حياة أبيه على بن عبدالقادر، الذى أشغل بعض الوظائف المتعلقة بالقضاء، ثم بالكتابة فى ديوان الإنشاء بالعاصمة.

ولد أبو العباس المقریزی على الأرجح سنة ٧٦٦هـ، فقد ذكر السخاوى بأن، «مولده حسبما كان يخبر به، ويكتبه بخطه بعد الستين» وقال السخاوى، «قال شيخنا ابن حجر إنه رأى بخطه مايدل على تعيينه فى سنة ٧٦٦هـ، وذلك بالقاهرة^(١)».

وإلى هذا ذهب كل من ابن العماد الحنبلى، والشوكانى^(٢) حيث أيد السخاوى فى رايه بأنه ولد عام ٧٦٦هـ.

(١) الضوء اللامع، ٢/٢١.

(٢) شذرات الذهب، ٧/٢٥٤، والبدر الطالع، ١/٢٩.

ويرى ابن تغرى بردى، وعلى مبارك: بأنه ولد بعد سنة ستين وسبعمائة بسنوات^(٣).

وهناك من يذهب إلى أنه هو نفسه قد ذكر بأن ولادته بعد سنة ستين وسبعمائة^(٤)، ولقد كانت ولادته فى القاهرة، ونشأ بها، فقد تكفل تعليمه الابتدائى، وحفظه القرآن جده لأمه شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن على الحنفى، المعروف بسبط ابن الصائغ.

ثم انكب على الدرس والتحصيل بإشراف مجموعة من فضلاء عصره بحيث أظهر فى صغره مقدرة كافية لتكوين شخصيته، حتى كان موضع عناية أساتذة العصر.

وما أن وصل إلى عتبة العشرين من عمره، أو جاوزها بقليل حتى كانت له الأهلية التامة لأن يطوف على صفوة أعلام زمانه، ويلتقى بكبارهم ويجالس أئمتهم، وينتهل من نعيمهم العلمى والأدبى.

ولقد ذكرت لنا بعض المصادر جملة ممن اخذ منهم تحصيله العلمى وكذلك عددًا ممن استجازهم، وفى مقدمة أولئك:

الشيخ برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن عبدالواحد النسائى المتوفى عام ٨٠٠هـ،
والحافظ نور الدين على بن أبى بكر بن سليمان الهيئى الشافعى المتوفى ٨٠٧هـ. كما
له اجازة من بهاء الدين أبى البقاء أحمد بن على السبكى وشهاب الدين أحمد بن
حمدان بن أحمد الأذرعى الشافعى وغيرهما.

(٣) المنهل الصافى، ١/٣٩٤، والخطط التوفيقية، ٩/٦٩.

(٤) مقدمة النزاع والتخاصم طبعة النجف ١٣٦٨هـ.

وقال السخاوى: «وإن شيوخه بلغت ستمائة نفس^(٥)» وتمكن المقرئى من تكوين شخصيته العلمية والأدبية، وبدأ نجمه يلمع فى أوساط القاهرة، كفاضل لا يستغنى عنه، وأديب استطاع أن يوجه إليه الأنظار، ومؤرخ واسع الاطلاع بحيث جلب إليه الانتباه.

ومن أجل طلب العلم رحل إلى مكة مرتين، وظل مقيمًا بها فى المرة الثانية حتى سنة ٨٣٩هـ، كما سافر إلى الشام، واتصل بعدد من الأعلام وأمضى بقية حياته بعد ذلك فى القاهرة منصرفًا إلى الدراسة العميقة والتأليف فى مختلف علوم عصره، وكان من المكثرين المجيدين^(٦).

ولقد جمع إلى جانب معلوماته العلمية والتاريخية والأدبية، خبرة واسعة بالاصطربلاب والرمل، وأمثالها^(٧).

واستمر مع الأيام يرتفع فيها صيته، ويشتهر ذكره، حتى أصبح علمًا من الأعلام وشاخصًا فى المؤرخين، معظمًا فى الدول، تضرب به الأمثال^(٨).

لكن المقرئى اتجه باهتمامه الكبير نحو التاريخ، فقد كان مغرًى به، معنًى بتحقيقه والتأليف فيه، وتدوين نواتره، حتى وصفته المصادر بأنه: «عرف منه جزء كبيرًا معرفة تامة وحفظ منه كثيرًا عن ظهر قلب».

(٥) الضوء اللامع، ٢١-٢٤/٢.

(٦) دراسة عن المقرئى فى مجلة الرسالة المصرية، ص ١-١٩ ص ١٦.

(٧) الضوء اللامع، ٢٣/٢.

(٨) شذرات الذهب، ٢٥٤/٢.

وقال ابن تغرى بردى - وهو من مؤرخى مصر المعروفين - : «وفى الجملة هو (المقريزى) اعظم من رأيناه فى علم التاريخ وضروبه، مع معرفتى لمن عاصره من علماء المؤرخين، والفرق بينهم ظاهر»^(٩).

ورغم ما اكده العلماء، وكتاب التاريخ بأن المقريزى من الطراز الأول فى تدوين التاريخ ووفرة الاطلاع فيه، فإن المقريزى نفسه أكد لنا أيضًا بأنه ضرب فى باقى أنواع المعرفة قدحه وشارك فى أكثر من نوع واحد من أنواع المعرفة فلقد سجل لنا ثبت مؤلفاته أنه ترك للمكتبة الإسلامية العربية مؤلفًا فى علم الكلام، والعقائد والتوحيد، وآخر فى الحديث، وثالثًا فى السكة، والأوزان والمقاييس، كما كتب فى المعادن، والطب والموسيقى وغير ذلك من العلوم التى تتعلق بحياة المجتمع، بحيث بلغت مؤلفاته مايزيد على المائة مجلد.

وبعد هذا فهو شاعر مجيد وإن لم تسجل لنا المصادر نماذج كثيرة من شعره، غير أن السخاوى نقل عن شيخه بأن له نظمًا فائقًا، وشعرًا زائقًا، ومما قاله فى وصف دمياط:

سقى عهد دمياط وحيا من عهد	فقد زادنى ذكراه وجداً على وجد
ولا زالت الأنواء تسقى سحابها	دياراً حكمت من حسنها جنة الخلد
فيا حسن هاتيك الديار وطيبها	فكم قد حوت حسناً يجل عن العد
قلله أنهار تحف بروضها	لكالمرهف المصقول أو صفحة الخد
وبشنيها الريان يحكى متيماً	تبدل من وصل الأحبة بالصد
فقام على رجليه فى الدمع غارقاً	يراعى نجوم الليل من وحشة الفقد

(٩) مجلة الرسالة، س١، ع١٩٤، ص١٧.

وظل على الأقدام تحسب أنه
ولا سيما تلك النواعير إنَّها
اطارحها شجوى وصارت كأنما
فقد خلتها الأفلاك فيها نجومها
وفى البرك الغراء يا حسن نوفر
سماء من البلور فيها كواكب
وفى شاطئ النيل المقدس نزهة
وتنشى رياحا تطرد الهم والأسى
وفى مرج البحرين جم عجائب
كأنَّ التقاء النيل بالبحر إذ غدا
وقد نزلا للحرب، واحتدم اللقاء
فضلا كما باتا وما برحا كما هما
فكم قد مضى لى من أفانين لذة
وكم قد نعمنا فى البساتين برهة
وفى البرزخ المأنوس كم لى خلوة
هناك ترى عين البصيرة ما ترى
فيارب هيئ لى بفضلك عودة
لطول انتظار من حبيب على وعد
تجدد حزن الواله المدنف الفرد
تطارح شكواها بمثل الذى أبدى
تدور بمحض النفع منها وبالسعد
حلا وغدا بالزهو يسطو على الورد
عجيبة صبغ اللون محكمة النضد
تعيد شباب الشيب فى عيشه الرغد
وتنشى ليالى الوصل من سيبها عندى
تلوح وتبدو من قريب ومن بعد
مليكان ثارا فى الجحافل من جند
ولا طعن إلا بالثقة الملة الملد
من جليل الخطب فى أعظم الجهد
بشاطئها العذب الشهى لذى الورد
بعيش هنء فى أمان وفى سعد
وعند شطا عن أيمن العلم الفرد
من الفضل والإفضال والخير والمجد
ومن بها فى غير بلوى ولا جهد^(١٠)

هذه هى المقطوعة الشعرية الوحيدة التى أشارت لها المصادر الأدبية وذكرها هو
فى إحدى مؤلفاته^(١١).

وإذا حاولنا أن ندرس جوانب أخرى من سماته الشخصية، غير الناحية العلمية

(١٠) الخطط المقرزية، ١/ ٣٦٢.

(١١) المنهل الصافى، ١/ ٣٩٩ هامش ١.

والأدبية، فقد اجمع معاصروه على أنه كان رجلاً فاضلاً ديناً، مجداً، أميناً في عمله، على جانب عظيم من حسن الخلق، وكرم العهد، وكثرة التواضع، وعلو الهمة لمن يقصده، والمحبة في المذاكرة وحسن الصلات، ومزيد الطمأنينة، والملازمة لسنة، محمود السيرة في مباشراته، وقد لخص ابن حجر هذا كله بقوله: «وكان حسن الصحبة حلو المحاضرة»^(١٢).

وختمت بعض المصادر حديثها عنه بقولها: «قد انقطع في داره ملازماً للخلوة، والعبادة، قل أن يتردد على أحد إلا لضرورة»^(١٣).

وبالنسبة لمذهبه فتؤكد لنا المصادر بأنه انحدر من أب حنبلي وأن جده لأبيه كان فقيهاً حنبلياً، وحجة في الحديث، أما جده لأمه - وهو ابن الصائغ - فقد كان فقيهاً حنفياً.

ولكن المقرئ تفقه في شبابه على المذهب الحنفي تبعاً لجده لأمه وحفظ مختصراً فيه ثم لما ترعرع - وذلك بعد وفاة والده في سنة ٧٨٦هـ وهو حينئذ قد جاوز العشرين تحوّل شافعياً، واستقر عليه أمره، ولكنه كان مائلاً إلى المذهب الظاهري، ولذلك قال السخاوي: «وقال شيخنا - ويقصد ابن حجر - أنه أحب الحديث فواظب على ذلك، وحتى كان يتهم بمذهب ابن حزم، ولكنه كان لا يعرفه»^(١٤).

ويقول ابن العماد: «وكان كثير التعصب على السادة الحنفية وغيرهم، لميله إلى --

(١٢) الضوء اللامع: ٢/٢٤.

(١٣) نفس المصدر المتقدم.

(١٤) الضوء اللامع: ٢/٢٢.

المذهب الظاهر^(١٥)..

وقال ابن تغرى بردى فى هذا الصدد: «وتفقه على مذهب الحنفية وهو مذهب جده لأمه، ثم تحول شافعيًا بعد مدة طويلة لسبب من الأسباب ذكره لى^(١٦)».

اما المصادر الحديثة فيقول الدكتور محمد مصطفى زيادة: «وكفل تعليم الصبى جده لأمه فأخذ بتنشئته على أصول المذهب الحنفى، ولما مات أبوه عام ٧٨٦هـ ترك المذهب وانتقل إلى الشافعية، ودرس الفقه دراسة واسعة، وأخذ بعدئذ يهاجم الحنفية فى عنف استجلب لوم معاصريه له^(١٧)».

واكاد اطمئن بأن المقرئى قد انتهى إلى الشافعية لأمرين: أولاً: لذهاب أغلب المؤرخين والباحثين إلى القول بكونه شافعي المذهب. ثانياً: لعدم تحامله على آل البيت عليهم السلام، وحبه لهم وإن المتتبع لمؤلفاته يرى أنه لم يحاول المساس بهم بما يشين كرامتهم، وتكاد تكون هذه طبيعة عامة الشافعيين إلا ما شذ.

وبعد هذا كله، فلقد ملك المقرئى كل المقومات العلمية والأدبية والاجتماعية التى أهلتة لأن ينال لدى المسؤولين مكانة كبيرة، وعناية خاصة، وكان من الطبيعى أن تحتضن دار الإنشاء فى القاهرة هذه الشخصية، ولما أبدى فيها الكفاءة والمقدرة الفائقة تنقل بعد ذلك فى عدة مناصب كبيرة فى الدولة، وكان فى خلالها مثال الموظف المستقيم

(١٥) شذرات الذهب، ٢/٢٥٥.

(١٦) المنهل الصافى، ١/٣٩٤.

(١٧) المؤرخون فى مصر، مجلة الثقافة س١، ١٩٤، ص١٥.

يحب الخير ويعمل من أجله، ويؤدى واجبه كموظف يرى خير ما يجب عليه ان يقوم بما التزم به بكفاءة وقابلية.

ولقد بقى كاتباً فى ديوان الإنشاء حتى سنة ٧٩٠هـ، ثم غدا بعد فترة قليلة نائباً من نواب الحكم عند قاضى القضاة الشافعى، ثم إماماً لجامع الحاكم، ومدرّساً للحديث بالمدرسة المؤيدية.

وفى سنة ٨٠١هـ اختاره السلطان برقوق - وكان حفيًا به مشجعًا إياه - لوظيفة محتسب القاهرة، والوجه البحرى - وهى من مناصب القضاء الهامة يومئذ - ثم بعد فترة من الزمن عزل عنها، وعاد لتوليبتها بعدئذ فى أيام الدودار الكبير سودون، ابن اخت الظاهر.

وفى سنة ٨١١هـ انتقل المقرئى إلى دمشق ليتولى النظر على أوقاف القلانسية والمارستان السورى، والتدريس فى مدرستى الأشرفية، والاقبالية بمادة الحديث، ثم لم يلبث ان اختاره السلطان فرج بن برقوق لأن يكون قاضياً بدمشق، ثم تنقل بعدها فى عدة مناصب، وطال به المكث فى دمشق، فقد كانت إقامته فيها ما يقارب عشر سنوات، يتولى فيها مختلف المناصب.

وأثر فى نفسه عامل السّام من الوظائف الحكومية، لذا فقد طلب من المسؤولين اعفائه عن كل منصب، واستجابت الحكومة لطلبه. فترك دمشق وأعمالها، وعاد إلى القاهرة ليتفرغ إلى البحث والكتابة^(١٨).

(١٨) راجع فى هذا الصدد المصادر التالية: الضوء اللامع: ٢/٢٢، والمنهل الصافى: ١/٣٩٩، ومصر الإسلامية: ٤٥، المؤرخون فى مصر مجلة الثقافة: س١. ١٩ع. ص١٥.

وهناك ظاهرة فى حياة المقرئى جديرة بالناية والاهتمام، تلك هى تعصبه لوطنه وتكريس جهوده له، والتغنى فى محاسنه، وكل ذلك «ينم عن الحب العميق الذى كان يملأ جوانح المؤرخ نحو وطنه، ومسقط رأسه، وعما كان يحدوه من شغف الوفاء بتخليد آثار هذا الوطن وتدوين محاسنه وسعاداته، ورثاء مصائبه ومحنه^(١٩)».

ولقد كرس جزءاً كبيراً من مؤلفاته فى التحدث عن مصر، وقد طغت هذه الظاهرة عليه حتى عبّر عنها نفسه فقال فى مقدمة خطته: «وكانت مصر مسقط رأسى، وملعب أترابى ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤ جؤى الذى ربى جناحى فى وكره وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره، لا زلت مذ شذوت العلم وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الإغتراب من آبارها، وأهوى مسألة الركبان عن سكان ديارها فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد قلّ ما يجمعها كتاب... الخ^(٢٠)».

وهكذا كان، فلو ألقينا نظرة على ثبت مؤلفاته، رأينا أنّه خص مصر وأخبارها بقسط وافر من مجهوده، ضمنها تاريخ مصر، والدول التى تعاقبت عليها، وعلى سبيل المثال نذكر ما توصلنا إليه فى هذا الصدد:

١- المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار: ويعرف «بخطط المقرئى» ويقع الكتاب فى أربعة أجزاء، ويشتمل على تاريخ مصر بصورة مفصلة وقد طبع عدة طبعات.

٢- السلوك لمعرفة دول الملوك: وهو تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ إلى سنة ٨٤٤هـ،

(١٩) مصر الإسلامية: ٤٦.

(٢٠) الخطط المقرئية: ٢-٣/١.

قال جرجى زيدان: «ذكر فيه الله لما اكمل كتاب «عقد جواهر الأسفاط» وكتاب «اتعاظ الحنفا» وهما يشتملان على من ملك مصر من الأمراء والخلفاء، وما كان فى أيامهم من الحوادث منذ فتحت إلى أن زالت دولة الفاطميين، أراد أن يصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم، من الأكراد، والأتراك، والجراكسة، غير مقيّد فيه بالتراجم والوفيات، فالف هذا الكتاب، رتبه على السنين بذكر حوادث السنة، ثم يترجم من مات فيها من الأعيان ترجمة مختصرة، وإنما يطيل فى الحوادث»^(٢١).

نشر هذا الكتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة فى عدة أجزاء فى القاهرة.

٣- المقضى أو التاريخ الكبير: وصف فيه معيشة الأمراء والمشاهير الذين أقاموا بمصر رتبته على الحروف الأبجدية، وقدر أنه يستغرق ثمانين مجلدًا لم يظهر منه إلا ١٦ مجلدًا، منها ثلاثة مجلدات فى ليدن، ومجلد فى باريس كلها بخط المؤلف.

٤- درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة: وهو معجم لتراجم الأعيان من معاصريه فى ثلاثة مجلدات، منه قطعة فى حرف الألف وأخرى فى حرف العين بخط المؤلف فى غوطا.

٥- اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء: وهو تاريخ الدولة الفاطمية، منه نسخة فى غوطا بخط المؤلف، عنى المستشرق بونز بنشرها سنة ١٩١١م فى غوتنجن، ولايبزك ١٩٠٩م ص ١٥١ وهذه النسخة طبعت بمطبعة دار الأيتام السورية بالقدس الشريف، كما نشرها الدكتور جمال الدين الشيال فى القاهرة.

٦- البيان والإعراب عما فى أرض مصر من الأعراب؛ منها نسخة فى فيينا، وباريس، ودار الكتب المصرية، وقد ترجمها وستنفلد إلى الألمانية، ونشرها فى غوتنجن سنة ١٨٤٧م فى ثلاثة أجزاء.

٧- عقد جواهر الأسفاط فى اخبار الفسطاط؛ قال جرجى زيدان لم نقف على خبره^(٢٢).

٨- إغاثة الأمة بكشف الغمة؛ وهو تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور حتى سنة ٨٠٨هـ، وهو العام الذى وضع المؤلف فيه كتابه المذكور وقد نشره الأستاذان؛ زيادة والشيال بالقاهرة ١٩٤٠.

٩- تاريخ الأقباط، أو اخبار قبط مصر؛ قال سر كيس؛ «وهذا الكتاب مستخرج من كتاب المواعظ والإعتبار «الخطط» وقد طبع مرتين؛ الأولى؛ باسم «دخول قبط مصر فى دين النصرانية» ومعه ترجمة لاتينية باعتهاء الأستاذ ونزر فى سالباشى ١٨٢٨م، ص ٢٤ و ٢١٥. والثانية؛ باسم «اخبار قبط مصر» باعتهاء العلامة وستنفلد فى غوتا ١٨٤٥م ص ١٧٢ و ٧٠ وباعتهاء الأستاذ هماكر فى امستردام سنة ١٨٢٤م^(٢٣)».

هذه الكتب الرئيسية التى خصها المقرئ من سلسلة مؤلفاته بتاريخ مصر وببحث فيها جميع جوانبها العلمية والأدبية والاجتماعية، وهناك الكثير من البحوث التى تخص وطنه نراها منتشرة فى ثنايا مؤلفاته غير المخصصة بمصر، كالبحت عن الدول -----

(٢٢) تاريخ آداب اللغة العربية، ٣/١٩٧.

(٢٣) معجم المطبوعات العربية، ٢/١٧٨٠.

المجاورة لمصر ومدى علاقتها بها وتاريخ النقود المصرية، وغير ذلك.

ولست مبالغاً إذا ادعيت: أنّ المقرئى كان يود أن يزج حديث مصر فى كل كتاب يؤلفه تأكيداً على حبه لها، وهذه الظاهرة طغت على أكثر من جانب من نتاجه العلمى أو الأدبى، أو التاريخى، أو أى جانب آخر من المواضيع التى كتبها.

ومن الجدير وقد بلغ بنا الحديث إلى مؤلفاته أن نستعرض ما كتب والى، فقد ذكر السخاوى قائلاً: «قرأت بخطه أنّ تصانيفه زادت على مائتى مجلدة كباراً»^(٢٤).

وأكدت بعض المصادر أنّه كان مثابراً على التأليف والبحث، ولم يمسه عن المزيد منها غير مرضه الطويل، ثم وفاته.

قال جرجى زيدان: «ثم استقر فى القاهرة، وانقطع للعلم واشتغل بالتاريخ، والى فيه مؤلفات مهمة، هى مرجع الناس فى حالة مصر السياسية والاجتماعية فضلاً عن التاريخ»^(٢٥).

والحقيقة أنّ المقرئى قد ولع بالجانب التاريخى، وأولى عناية خاصة فيه بحيث اضطر مترجموه أن يعترفوا بهذه الحقيقة، ولقد ذكر ابن تغرى بردى وهو خليفته فى هذا الاتجاه ما يؤكد على هذا الإدعاء.

يقول: «وفى الجملة هو أعظم من رأيناه فى علم التاريخ وضروبه مع معرفتى لمن

(٢٤) الضوء اللامع: ٢/ ٢٢.

(٢٥) تاريخ آداب اللغة العربية: ٣/ ١٩٠.

عاصره من علماء المؤرخين، والفرق بينهم ظاهر^(٢٦)».

وكذلك السخاوى المؤرخ المصرى الذى ينازع المقرئى مكانته يعترف، فيقول: «وأولع بالتاريخ فجمع منه شيئاً كثيراً، وصنّف فيه كتباً وكان لكثرة ولعه به يحفظ كثيراً منه^(٢٧)».

وكانت حصيلة هذه الوفرة العلمية المؤلفات التالية:

- ١- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ويعرف بخطط المقرئى.
- ٢- السلوك لمعرفة دول الملوك.
- ٣- المقفى، أو التاريخ الكبير.
- ٤- درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة.
- ٥- اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين المخلفاً.
- ٦- البيان والاعراب عما فى أرض مصر من الأعراب.
- ٧- عقد جواهر الأسفاط فى أخبار الفسطاط.
- ٨- إغاثة الأمة بكشف الغمة.
- ٩- تاريخ الأقباط، أو أخبار قبط مصر^(٢٨).
- ١٠- الدرر المضية فى تاريخ الدولة الإسلامية، من مقتل عثمان إلى المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، نسخة منه فى كمبريدج.
- ١١- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، فى ستة مجلدات حدث به فى مكة والمدينة، منه نسخ فى غوطا وكوبرلى، ودار الكتب المصرية.

(٢٦) مجلة الثقافة: س ١. ع ١٩. ص ١٧.

(٢٧) الضوء اللامع، ٢/ ٢٤.

(٢٨) تقدم الحديث عن هذه الكتب.

١٢- نبذة العقود فى أمور النقود (أو شذور العقود): يشتمل على تاريخ النقود العربية، تكلم عن النقود القديمة عند الفرس والروم واجزائها، ثم النقود الإسلامية، وتاريخها فى الجاهلية، وما كان ينقش عليها، ثم تكلم عن نقود مصر فى أيامه، منها نسخ فى برلين وليدن والاسكوريال، ونقلت إلى الإيطالية، وطبعت فى روستك سنة ١٧٩٧ بهمة الأستاذ تيكس وترجمها دى ساسى إلى الفرنسية ونشرت فى باريس سنة ١٧٩٧، وقد طبعت فى مصر سنة ١٢٩٨هـ، كما طبعتها الأب إنستاس فى ضمن كتاب النقود العربية وعلم النميات سنة ١٩٣٩م فى القاهرة وطبعت فى النجف الأشرف فى المطبعة الحيدرية قبل ٢٥ عامًا تقريبًا.

١٣- المكايل والموازن الشرعية: رسالة تبحث فى المكايل والموازن العربية بالنظر إلى الشرع والعرف العام، منها نسخة فى ليدن وأخرى فى دار الكتب المصرية فى ١٨ صفحة، وقد ترجمت إلى الإيطالية وطبعت فى روستك سنة ١٨٠٠م ص ٢٠ و ٨٠، باعتناء الأستاذ رنك.

١٤- مقالة لطيفة وتحفة سنية شريفة: فى حرص النفوس الفاضلة على بقاء الذكر والرسالة فى المتحف البريطانى.

١٥ - ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى: فى المتحف البريطانى.

١٦- النحل عبر النحل: فى النحل ومملكته، والعسل واسمائه وما يتصل بذلك فى علم الحيوان والنبات، نسخة منه فى كمبريدج ونشرها جمال الدين الشيال سنة ١٩٤٦م بمصر.

١٧- الطريقة الغربية فى اخبار حضرموت العجيبة (أو الطرفة الغربية): رسالة فى إرشاد الحاج لطريق مكة. فى كمبريدج، وقد طبعت فى بون، مصورة ومشروحة سنة ١٨٦٦م، باعتناء الأستاذ سكوى عربى ولاتينى.

١٨- الإلام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام، كتاب صغير طبع فى بتافيا مع ترجمة فرنسية سنة ١٧٩٠م، وفى مصر سنة ١٨٩٥م مطبعة التأليف ص ٢٧، ومطبعة الموسوعات.

١٩- معرفة ما يجب لآل البيت الشريف من الحق على من عداهم منه نسخة فى فينا .

٢٠- الذهب المسبوك فى معرفة من حج من الملوك: ذكر فيه ٢٦ نضرا، أولهم الرسول فالخلفاء الراشدون، ومن بعدهم إلى أيامه فى خمسة أجزاء، ومنه نسخة فى كمبريدج.

٢١- الإشارة والأسماء إلى حل لغز الماء: فى دار الكتب المصرية.

٢٢- إزالة التعب والعناء فى معرفة حال الغناء: فى باريس.

٢٣- ذكر ما ورد فى بنى أمية وبنى العباس من الأقوال: منه نسخة فى فينا .

٢٤- كتاب الخبر عن البشر: وهو كبير فى ستة أجزاء، ذكر فيه القبائل وأنساب الرسول (ص)، منه نسخ فى أيا صوفيا، وفى خزانة الفاتح وفى ستراسبورج، وقال جرجى زيدان: ونقلت عنه مجلة المشرق فصلا فى تاريخ الكتابة العربية فى الإسلام (سنة ١٠ صفحة ٤٧٨) (٢٩).

٢٥- تراجم ملوك الغرب: فيه أخبار أبى حمو، ومن خلفه على تلمسان، منها نسخة فى ليدن، وفيها فى جملة مجموعة، فيها بضعة عشر مؤلفا من مؤلفات المقرئى التى تقدم ذكرها .

٢٦- البيان المفيد فى الفرق بين التوحيد والتلحيد: وفى بعض المصادر ورد اسمه (تجريد التوحيد المفيد) نسخة منه فى دار الكتب المصرية، وورد ذكره فى فهرست مخطوطات مكتبة جسر بتى ليدن ٤٥١ برقم ١٤٩٦.

٢٧- جنى الأزهار من الروض المعطار: ذكره جرجى زيدان وقال: «منه نسخة فى دار الكتب المصرية فى ١١٦ صفحة ذكر فيها الله خلاصة «الروض المعطار فى عجائب الأقطار» وفيه وصف أهم الأقاليم ومساحاتها، وفى صدر هذه النسخة سعى المؤلف شهاب الدين المقرئى فإذا صحت التسمية، كان المؤلف أحد أعقاب تقى الدين

المقریزی، لأنّ الروض المعطار الذى لخصه، تأليف أبى عبد الله الحميرى المتوفى سنة ٩٠٠ هـ أى بعد تقى الدين المقریزی بنصف قرن^(٢٠) .

٢٨- تاريخ الجراكسة: قال جرجى زيدان، لعله مقتطف من كتاب (واسطة السلوك فى دول الملوك)^(٢١) .

٢٩- مجمع الفرائد ومنيع الفوائد: ويشمل على علمى العقل والنقل المحتوى على فنى الجد والهزل، بلغت مجلداته نحو المائة، هكذا نقل السخاوى^(٢٢) .

٣٠- ما شاهدته وسمعه ما لم ينقل فى كتاب.

٣١- المقاصد السنية فى معرفة الأجسام المعدنية.

٣٢- السير فى سؤال خاتمة الخير.

٣٣- الإشارة والكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام، ومختصره.

٣٤- الإخبار عن الإعذار.

٣٥- شارع النجاة: اشتمل على ما اختلف فيه البشر من اصول دياناتهم وفروعها مع بيان أدلتها، وتوجيه الحق فيها.

٣٦- النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم: وهو الكتاب الذى نحن نقدمه للقراء الكرام، وقد نصت عليه كل المصادر التى تترجم للمقریزی.

وتكاد تكون هذه أهم مؤلفات المقریزی حسبما ذكرتها مجموعة من المصادر القديمة منها والحديثة.

(٢٠) تاريخ آداب اللغة العربية، ١٩٣/٣.

(٢١) نفس المصدر، ١٩٢/٣.

(٢٢) انفراد بذكر هذا الكتاب والكتب التى تليه السخاوى فى الضوء اللامع، ٢٢-٢٤/٢، وقد اقتصر على ذكر الاسم فقط.

بقى ان نعرف مدى قابليته على الضبط والاتقان فى النقل التاريخى وباقى الجهات العلمية، وأول ما يطالعنا فى ذلك شمس الدين السخاوى - الذى يعتبر من اعلام عصره - فقد أنكر عليه فضل وضعه وابتكاره لأنفس مصدر فى تاريخ مصر الإسلامية، ذلك هو خططه، ونسب إليه النقل والتزييف، وحمل عليه بشدة، ورماه بالادعاء والضعف والسقط.

ولنقرأ له - فقرة وردت فى ترجمته يقول فيها: «وكان كثير الاستحضار للوقائع القديمة فى الجاهلية، وغيرها، وأما الوقائع الإسلامية، ومعرفة الرجال واسمائهم والجرح والتعديل، والمراتب والسير وغير ذلك من أسرار التأريخ ومحاسنه فغير ماهر فيه»^(٢٣).

ويقول فى مناسبة أخرى، وفى ضمن ترجمته له أيضا: «وكان حسن المذاكرة بالتأريخ، ولكنه قليل المعرفة بالمتقدمين، ولذلك كثر فيهم وقوع التحريف والسقط، وكانت له معرفة قليلة بالفقه والحديث والنحو واطلاع على أقوال السلف، وإمام بمذاهب اهل الكتاب، حتى كان يتردد إليه أفاضلهم للاستفادة منه، مع حسن الخلق، وكرم العهد، وكثرة التواضع وعلو الهمة لمن يقصده، كل ذلك مع تبجيل الأكابر له، إما مدارة له خوفا من قلمه او لحسن مذكراته»^(٢٤).

ولعل القارئ قد لمس محاولة السخاوى فى الحط من شخصية المقرئ من خلال هاتين الفقرتين.

ولكن السخاوى يذهب إلى أبعد من هذا الحد فى الانتقاص فيدعى فى موضع

(٢٣) الضوء اللامع، ٢/ ٢٣.

(٢٤) الضوء اللامع، ٢/ ٢٢.

آخر من مؤلفاته بأنَّ المقرئى، «أقام ببلدة عاكفا على الاشتغال بالتاريخ، حتى اشتهر ذكره، وبعد فيه صيته، وصارت له جملة تصانيف كالخطط للقاهرة وهو مفيد، لكونه ظفر بمسودة الأوحى فأخذها وزادها زوائد غير طائلة^(٣٥)».

وإذا كان السخاوى قد رمى زميله المقرئى بعدم الضبط فى الفقرتين المتقدمتين، ففى هذه المرة رماه بالإختلاس، وهذه تهمة كبيرة جداً بالنسبة لمؤرخ حاز المكانة الأولى فى آثاره وتصانيفه.

وذهب السخاوى يؤكد هذا المعنى فى أكثر من موضع، تارة بالتلويح، وأخرى بالصراحة، كل ذلك ليحكم الطعن الذى وجهه إلى زميله المؤرخ الذى نال اهتمام الملوك والزعماء وأهل العلم والأدب فى حينه.

ولكن الذى يرجع إلى كتب السخاوى، ويقرأ ما يكتبه من التراجم يستطيع أن يخرج بنتيجة واضحة فى أسلوب ونفسية السخاوى تلك هى مهاجمته لأكابر عصره، وانتقاصه لأقدارهم، ونقده لجهودهم ففى (الضوء اللامع) ما يكفى للتدليل على هذا الادعاء، ولقد أصاب ابن خلدون، والبقاعى، وأبا المحاسن ابن تغرى بردى ما أصاب المقرئى من لوم وتقريع من السخاوى ولقد ألف جلال الدين السيوطى مقامة شديدة كتبها للرد على السخاوى، أسماها (الكاوى على تاريخ السخاوى) قال فيها: «ماترون فى رجل ألف تاريخاً جمع منه أكابر وأعياناً، ونصب لأكل لحومهم خواناً ملاء بذكر المساوى، وثلب الأعراض، وفوّق فيه السخاوى سهاماً على قدر اغراضه^(٣٦)».

(٣٥) التبر المسبوك فى ذيل السلوك، ٢١ ط بولاق.

(٣٦) مصر إسلامية، ٥٧ عن مخطوطة المقامة، وجاء فى هامش ٣ من الكتاب والصفحة، أن كتاب (الكاوى على تاريخ السخاوى) توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم (١٥١٠ - ادب).

ولقد أصبح موقف السخاوى والمقرئى موضع دراسة واهتمام كثير من الباحثين وخاصة لدى المستشرقين، فمنهم من وقف إلى جانب السخاوى وآخر أكد على نظافة المقرئى من هذه التهمة.

واستمر المقرئى فى نشاطه العلمى والأدبى، مثابراً على التأليف والبحث ولم يمسكه عن المزيد منها غير مرضه الطويل، ثم وفاته عام ٨٤٥هـ بالقاهرة، وذهب السيوطى إلى أن وفاته كانت عام ٨٤٠هـ ودفن فى مقبرة الصوفية، خارج باب النصر من القاهرة.

ولم تشر المصادر إلى ذرية له سوى ما ذكرت بعض الروايات من أن له بنتاً ماتت فى حياته بالطاعون الذى اجتاح القاهرة عام ٨٠٦هـ.



وبعد استعراضنا لحياة المؤلف بصورة عاجلة، ننتقل إلى الكتاب الذى نحن بصدد تقديمه للقراء الكرام، وهو:

«النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم»

هذا هو اسم الكتاب، وهو يشرح بوضوح ما يضم بين دفتيه، وأجمعت المصادر المترجمة للمقرئى أنه من مؤلفاته.

فالنزاع بين بنى هاشم وبنى أمية يمتد جذوره إلى هاشم بن عبد مناف،

وابن أخيه أمية بن عبد شمس، فيستعرض المقرئى جملة من الأسباب التى أحكمت المنافرة بين هاشم وأمية، وانتقلت بعدهما إلى ولديهما عبدالمطلب بن هاشم وحرب بن أمية وتمادت العداوة بين البيتين حتى انتقلت من رجل إلى رجل، وانتهت إلى رسول الله (ص)، وكان موقف أبى سفيان معلوما لكل من اطلع على خطوط السيرة النبوية، وتاريخ تلك الحقبة من السنين.

ثم انتقل هذا الموقف إلى الإمام على عليه السلام، ومعاوية ابن أبى سفيان، وبعده إلى الحسين بن على «ع» ويزيد بن معاوية، وهكذا تسلسل من بيت إلى بيت، ومن رجل إلى رجل، ولقد أحكم هذا النزاع وتوثقت أسبابه على مر الأيام، وهول الأحداث، وتجسد على مسرح التاريخ بشكل تتقرّر منه النفوس من ظلم الأمويين لهذا البيت الطاهر الذى فضّله الله بالإمامة وشرّفه بالنبوة، وخصه بكل مكرمة.

وحاول المقرئى أن يستعرض علاقة هاذين البيتين ويسجل الأسباب التى دعت إلى المنافرة وفعلا نجحت محاولته، وكان - كما أعهد - الكتاب الأول فى موضوعه، إذ لم يسبقه أحد فى هذا البحث، سوى ما سجلته المصادر التاريخية الكبرى فى ثناياها عن سيرة بنى هاشم، وبنى أمية ولكن دون أن تخصصهما بكتاب مستقل.

وجاء الكتاب سجلا حافلا مسلسلا عن المشاكل والخصام القائمة بين هاتين الأسرتين، والصراع الدامى الذى دار بينهما زمانا ليس بالقصير وانتهى إلى مأسى فضيحة اسودّ فيها وجه التاريخ.

ولم يقتصر المؤلف على موقف الأمويين من الهاشميين فحسب، بل تناول موقف العباسيين - استطرادا - من العلويين، وسرد الكثير من الوقائع التى جرت عليهم، من

قبل الخلفاء العباسيين وأعوانهم، وألوان الضيم والظلم، والاضطهاد والجور، بحيث يقصر الحديث لو حاول الإنسان التحدث فيه.

ولعل الشاعر العربي ليس مبالغاً في قوله:

تأله ما فعلت أمية فيهم معشار ما فعلت بنو العباس

وهذا الصِّراع الدامي الذي لاقاه الهاشميون من يومهم الأول، وحتى نهاية الدولة العباسية، وما بعده بألوانه الدامية، سواء من الأمويين أو من العباسيين أو من غيرهم ماهو إلا صراع بين الحق والباطل، والخير والشر، وكانت النتيجة غير ما قدر لها الأمويين واضرابهم:

فهذا على والأهازيج باسمه تشق الفضا النائي فهاتوا معاويا
أعيدوا ابن هند إن وجدتم رفاته رفاتاً وإلا فانشروها مخازيا

وكان المقرئ موفقاً كل التوفيق في تسجيل تلك الأحداث، وتصوير تلك المآسى مما جسد طبيعة الصِّراع والأحداث بينهما خير تجسيد وأفهم الناس المحق منهما من المبطل.

ولما كان هذا الموضوع وطيد الصلة بمجتمعنا الإسلامى، وإن الأمة الإسلامية تواقة للإطلاع على تفاصيل هذا الموضوع، كان من الطبيعى أن يلاقى هذا الكتاب رواجاً باهراً، ويطلع عدة طبقات، خاصة إذا انتهينا إلى أنّ لهذا الموضوع علاقة أكيدة بعقائدنا وتقاليدنا الدينية.

ولقد عثرت على ثلاث طبعات من هذا الكتاب أسجل عنها الملاحظات التالية
بإيجاز:

١- طبعة ليدن:

وقد طبعت في عام ١٨٨٨م بمدينة ليدن، ووضع لها الأستاذ جيرار دوس قوس
مقدمة باللغة الألمانية، وجاء الكتاب النص العربي منه في ٧٢ صفحة وينتهي في
الصفحة ٧١، أما الصفحة الأخيرة فقد جاء فيها ما يلي:

«تم هذا الكتاب والحمد لله أولاً وآخراً، وقد نقلته من نسخة موجودة عند حضرة
على بك فهمى نجل المرحوم رفاعة بك رافع الطهطاوى وبها نقص فى وسطها تركت له
بياضاً على قدره، وكتبها عبدالعزيز إسماعيل الأنصارى الطهطاني فى شهر جمادى
الثانية سنة ١٢٩٥هـ.

تم كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى امية، وبنى هاشم تأليف الشيخ الإمام
العالم العلامة العمدة حافظ العصر ومؤرخ الوقت أبى العباس أحمد بن على بن
عبدالقادر بن محمد بن تميم المقرئ الشافعى تغمده الله تعالى برحمته، واسكنه
فسيح جنته، وأعاد علينا من فوائد علومه وبركته وجعله رفيقاً من النبيين، والصديقين،
والشهداء والصالحين على التمام والكمال ونعوذ بالله من الزيادة والإختلال، والحمد لله
وحده، وصلى الله على من لانبى بعده، محمد وآله وصحبه والتابعين، نقلت هذه النسخة
من نسخة نقلت من خط المؤلف فى خامس عشر ذى القعدة سنة ١١٣١هـ واحد وثلاثين
ومائة والف. كتبه الفقير على ابن السيد محمد الشيلأوى، غفر الله له ولوالديه،
ولجميع المسلمين، والحمد لله رب العالمين».

وفى النسخة بعض الشروح البسيطة، وتوجد نسخة من هذه الطبعة فى مكتبة آية الله الحكيم العامة فى النجف الأشرف.

٢- طبعة مصر،

وتاريخ هذه الطبعة يعود إلى عام ١٩٣٧م فى أول أغسطس فى المطبعة الإبراهيمية فى مصر، وقد قدم الكتاب الشيخ محمود عرنوس القاضى بالمحاكم الشرعية المصرية، عرّف فيها المؤلف والكتاب بصورة مختصرة، وتقع فى ٦ صفحات قطع الربع، وأهدى الناشر إبراهيم يوسف صاحب مكتبة الأهرام الكتاب إلى الدكتور على زكى العرابى باشا.

وجاء فى المقدمة المذكورة: «وكتاب التخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم وهو الذى تقدم له هذه المقدمة، وهو معتبر من فلسفة علم التاريخ ككتاب السخاوى المسمى الإعلام بالتوبيخ، فكلاهما كتاب فلسفى يدل على مقدرة مؤلفه».

والظاهر أنّ الناشر اعتمد على نفس النسخة التى اعتمد عليها الناشر لطبعة ليدن، إذ جاءت نفس الفقرات التى مرت فى نهاية طبعة ليدن، ويقع فى ٩٠ صفحة.

والحق الناشر بهذا الكتاب رسالة للجاحظ فى بنى أمية، وتقع فى ١٢ صفحة وقد ضمنها نقد معاوية ومن والاه.

٣- طبعة النجف،

وتاريخ هذه الطبعة عام ١٣٦٨هـ وقامت بطبعها المطبعة العلمية فى النجف الأشرف، وعنى بتصحيحها الأستاذ الخطيب السيد على الهاشمى - عضو جمعية

الرابطة الأدبية في النجف الأشرف - وقد صدرها بترجمة موجزة للمؤلف تقع في صفتين، ويقع الكتاب في ٦٢ صفحة قطع الربع والحق بها رسالة الجاحظ في بني أمية المتقدمة الذكر، وتقع في ٩ صفحات وجاء في مقدمة طبع المطبعة العلمية مايلي:

«رات المطبعة العلمية من المستحسن إعادة طبع كتاب (النزاع والتخاصم) للمؤرخ الشهير المقرئى لندرتة واحتياج الكثيرين إليه، مع العلم أن لدى صاحب المطبعة نسخة خطية ذات شأن، فكلفت آنئذ الأستاذ الخطيب السيد على الهاشمى أن يقف على طبعه وتصحيحه، فلبى السيد الهاشمى هذا الطلب، وصار يقابل النسخة الخطية على النسخة المطبوعة فى القاهرة، والتي نشرها - السيد إبراهيم يوسف - صاحب مكتبة الأهرام فطبع هذه النسخة القيمة مع المحافظة على تعليقات صاحب الفضيلة الأستاذ محمود عرنوس القاضى، فلأستاذين القاضى، والهاشمى جزيل الشكر والموفقية. ١٥ رجب - ١٣٦٨هـ.

ولصلة الكتاب بعقائنا، فقد تقرر أن يكون ضمن سلسلة مطبوعاتنا، وفعلاً تحقق ما صممنا عليه، وجعلنا الركيزة الأولى للكتاب طبعة ليدن، وعليها جرت هذه الطبعة، ورجائى أن يكون قد أدى خدمة كبيرة بهذا العمل الجليل، وأن يكون من حيث الطباعة والتصحيح ما يرضى القارئ الكريم، وقد الحقنا به تعليقاً من باب زيادة الفائدة. والله الموفق.

محمد السيد على بحر العلوم

النزاع والتخاصم

الحمد لله المعطى ما شاء من شاء لا مانع لعطائه، ولا راد لمراده وقضائه، أحمدته بما هو أهله من المحامد، وأشكره على فضله المتزايد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا معاند، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبيه وخليفه. اللهم صلّ عليه وعلى آله وصحابه ومحبيه، وأهل طاعته، وسلم، وشرف، وكرم.

أما بعد:

فإنى كثيراً ما كنت أتعجب من تطاول بنى أمية إلى الخلافة مع بعدهم من جذم^(١) رسول الله (ص) وقرب بنى هاشم وأقول: كيف حدثتهم أنفسهم بذلك وأين بنو أمية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله (ص) ولعينه من هذا الحديث مع تحكم العداوة بين بنى أمية وبنى هاشم في أيام جاهليتها، ثم شدة عداوة بنى أمية لرسول الله (ص) ومباغتهم في آذاه، وتماديهم على تكذيبه فيما جاء به منذ بعثه الله عز وجل بالهدى ودين الحق إلى أن فتح مكة شرفها الله تعالى فدخل من دخل منهم في الإسلام كما هو معروف مشهور، وأردد قول القائل:

كم من بعيد الدار نال مراده وآخر داني الدار وهو بعيد

فلعمري، لا بعد أبعد مما كان بين بنى أمية وبين هذا الأمر إذ ليس لبنى أمية سبب إلى الخلافة ولا بينهم وبينها نسب إلا أن يقولوا: «إنا من قريش» فيساوون في هذا الاسم قريش الظواهر، لأن قوله (ص): «الأئمة من قريش» واقع على كل قرشي^(٢).

(١) جذم كل شيء: أصله، والجمع: أجذام، وجذوم.

(٢) يقصد بقريش الظواهر مجموعة القبائل التي نزلت حول مكة من بنى الحارث وبنى محارب وبنى تميم وغيرهم. وحديث الأئمة من قريش رواه الطبراني والنسائي والبخاري في التاريخ.

ومع ذلك فأسباب الخلافة معروفة، وما يدعيه كل جيل معلوم، وإلى كل ذلك قد ذهب الناس، فمنهم من ادعاه لعل بن أبى طالب رضى الله عنه باجتماع القرابة والسابقة والوصية بزعمهم فإن كان الأمر كذلك فليس لبنى أمية فى شىء من ذلك دعوى عند أحد من أهل القبلة.

وإن كانت إنما تنال الخلافة بالوراثة، وتستحق بالقرابة، وتستوجب بحق العصبية، فليس لبنى أمية فى ذلك متعلق عند أحد من المسلمين.

وإن كانت لا تنال إلا بالسابقة، فليس لهم فى السابقة قديم مذکور، ولا يوم مشهور، بل لو كانوا إذ لم تكن لهم سابقة ولم يكن فيهم ما يستحقون به الخلافة لم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشد المنع كان أهون وكان الأمر عليهم أيسر.

﴿ فصل فى أبى سفيان ومروان ﴾

فقد عرفنا كيف كان أبو سفيان فى عداوته النبى (ص) وفى محاربته وفى اجلابه عليه وفى غزوه إياه، وعرفنا إسلامه كيف أسلم، وخلصه كيف خلص، على أنه إنما أسلم على يد العباس رضى الله عنه، والعباس هو الذى منع الناس من قتله وجاء به رديقاً^(٢) إلى النبى (ص) وسأل أن يشرفه وأن يكرمه وينوه به، وتلك يد بيضاء، ونعمة غراء، ومقام مشهور، وخبر غير منكور، فكان جزاء ذلك من بنيه أن حاربوا علينا وسموا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الاقتاب^(٤) حواسر^(٥) وأرادوا الكشف عن عورة على بن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه، كما يصنع بذرارى المشركين إذا دخلت

(٢) رديقاً أى راكباً خلفه.

(٤) الاقتاب مفردة قتب وهى الرجل الصغير.

(٥) حواسر أى مكشوفات وهو هنا يشير إلى نقل نساء آل البيت إلى يزيد بعد مذبحه كربلاء.

يامن احس بابنّ الذین هما
انحی علی ودجی طفلی مرهفة

کالدرتین تشطی عنهما الصدق
مطرورة وعظیم الإثم یقترف^(۸)

وَقَتَلُوا لَصْلِبَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ تِسْعَةَ، وَصَلَبَ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ تِسْعَةَ، وَلِذَلِكَ
قَالَتْ نَائِحَتُهُمْ^(٩) :

عین جودی بعبرة وعویل
واندبى إن ندبت آل الرسول
تسعة منهم لصلب على
قد اصابوا وتسعة لعقيل

هذا وهم يزعمون أن عقيلًا أعان معاوية على علي، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالكذب، وإن كانوا صادقين فما جازوه خيرًا إذ ضربوا عنق مسلم بن عقيل صبرًا وقتلوا معه هانيء بن عروة لأنه آواه ونصره^(١٠).

- (٦) على بن الحسين هو على الأصغر كان مريضاً ولم يشارك في القتال يوم كربلاء وأخذه رجال يزيد أسيراً. وهو الملقب بالإمام السجاد زين العابدين الإمام الرابع عند الشيعة.
- (٧) بسر بن أرطاة القرشي من رجال معاوية المتعصبين ضد علي وآل البيت اختلف في تاريخ وفاته. انظر طبقات ابن سعد ج ٧. وانظر كتب التراجم.
- (٨) تشطى أى تشقق والودج عرق فى العنق وودجى أى عرقى ومطرورة أى محدودة وهذه الأبيات وردت ضمن أبيات أخرى لها فى الكامل لابن الأثير ومروج الذهب للمسعودى والاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر والكامل للمبرد. انظر أحداث عام ٤٠هـ فى كتب التاريخ.
- (٩) هذه الأبيات منسوبة إلى بنت عقيل بن أبى طالب وهى ترثى شهداء كربلاء. انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٤. وانظر مقاتل الطالبين للأصفهاني.
- (١٠) مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة قتلا على يد عبيد الله بن زياد بالكوفة وكان الإمام الحسين قد ارسل مسلم إلى الكوفة لطلب البيعة من أهلها. انظر كتب التاريخ أحداث عام ٦٠هـ.

قال الشاعر^(١١)؛

فإن كنت لا تدريين ما الموت فانظري إلى هانئ في السوق وابن عقيل
ثرى بطلا قد هشم السيف رأسه وآخر يرمى من طمار قتيل

واكلت هند كبد حمزة، فمنهم آكلة الأكباد، ومنهم كهف النفاق ونقروا بالقضيب
بين ثنيتي الحسين، ونبشوا زيدا وصلبوه وألقوا رأسه في عرصة الدار تطأه الأقدام
وتنقر دماغه الدجاج^(١٢) حتى قال القرشي؛

أطردوا الديك عن ذؤابة زيد طال ما كان لاتطأه الدجاج

وقال شاعر بني أمية^(١٣)؛

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة
ولم نر مهديا على الجذع يصلب

وقتلوا يحيى بن زيد وسموا قاتله ثائر آل مروان وناصر الدين^(١٤).

(١١) اختلف أهل السير في صاحب هذه الأبيات فنسبها الدنيوري في الأخبار الطوال إلى
عبد الرحمن بن الزبير الأسدي أما الطبري فنسبها إلى الفرزدق ونسبها الأصفهاني في مقاتل
الطالبين إلى عبدالله بن الزبير الأسدي والطمار المكان المرتفع.

(١٢) كهف النفاق يقصد به هنا أبو سفيان بن حرب والد معاوية. وزيد هو ابن علي بن الحسين الذي
ثار على هشام بن عبد الملك وقتل وصلب.

(١٣) هو الأعور الطلبي حكيم بن عياش كان من خصوم علي وممن يهجون آل البيت وهجاه الكمي
شاعر آل البيت. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ١١١/٦.

(١٤) هو يحيى بن زيد بن علي بن الحسين ووالده زيد هو الذي ثار على هشام بن عبد الملك وقتل ثم
صلب. وثار يحيى على الوليد بن يزيد وقتل وصلب ويروى أن أبا مسلم الخراساني انتقم من
قتله بعد ذلك. انظر مقاتل الطالبين للأصفهاني. وانظر الكامل لابن الأثير ج ١٠٨/٥.

وضربوا على بن عبدالله بن العباس بالسياط مرتين على أن تزوج بنت عمه الجعفرية التي كانت عند عبدالملك بن مروان.

وعلى أن نخلوه^(١٥) قتل سليط وسموا أبا هاشم بن محمد بن علي^(١٦) وضرب سليمان بن حبيب بن المهلب أبا جعفر المنصور بالسياط قبل الخلافة، وقتل مروان الحمار الإمام إبراهيم بن محمد بن علي أدخل رأسه في جراب نورة حتى مات^(١٧). وقتلوا يوم الحرة^(١٨) عون بن عبدالله بن جعفر، وقتلوا يوم الطف^(١٩) مع الحسين أبا بكر ابن عبدالله بن جعفر، وقتلوا يوم الحرة الفضل بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، والعباس بن عتبة بن أبي لهب وعبدالرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب. ومع ذلك كله فإن عبدالملك بن مروان أبو الخلفاء من بني مروان أعرق الناس في الكفر لأن جده لأبيه الحكم بن أبي العاص لعين رسول الله (ص) وطريده وجده لأمه معاوية بن المغيرة بن أبي العاصى طرده رسول الله (ص)، ثم قتله على وعمار صبراً^(٢٠).

(١٥) نخلوه أى نسبوا إليه قتل سليط بن عبدالله بن عباس وإليه ينسب أبو مسلم الخراساني.

(١٦) سمه سليمان بن عبدالملك بسبب خوفه منه على الخلافة.

(١٧) جراب نورة أى جراب مملوء بالجير.

(١٨) يوم الحرة يوم عصت المدينة يزيد بن معاوية عام ٦٣هـ بعد مذبحة كربلاء واستباح فيها جنود يزيد نساء المدينة وخربوها. انظر تفاصيل هذه الواقعة الشنعاء والوصمة السوداء في كتب التاريخ أحداث عام ٦٣هـ.

(١٩) يوم الطف هو يوم كربلاء العاشر من محرم عام ٦١هـ.

(٢٠) عبدالملك بن مروان هو الخليفة الرابع في دولة بني أمية وأولاده هم الذين حكموا من بعده. انظر سيرته في تاريخ الخلفاء للسيوطي وكتب التاريخ، ومروان والده تولى الحكم بعد يزيد وتنازل معاوية الثاني. أما الحكم بن العاص ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص كلاهما حلت عليه اللعنة والطرده من قبل الرسول (ص) بعد فتح مكة وعاد الحكم إلى الظهور على الساحة في عهد عثمان بن عفان وكان له دوره في الفتنة التي أودت بحياته كما كان له دوراً في وقعة الجمل من قبل وهو الذي رمى طلحة بن عبيدالله بسهم فقتله كي يشعل نار الفتنة بين المسلمين. وسيأتي ذكر الحكم ومعاوية.

ولا يكون أمير المؤمنين إلا أولاهم بالإيمان وأقدمهم فيه، هذا وبنو أمية قد هدموا الكعبة^(٢١)، وجعلوا الرسول دون الخليفة^(٢٢)، وختموا في أعناق الصحابة^(٢٣)، وغيروا أوقات الصلاة^(٢٤)، ونقشوا أكف المسلمين، ومنهم من أكل وشرب على منبر رسول الله (ص) ونهبت الحرم ووطئت المسلمات في دار الإسلام بالبقيع في أيامه^(٢٥).

وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكر ملوك بني أمية قال: كان عبد الملك جباراً لا يبالي ما صنع، وكان الوليد محنوثاً، وكان سليمان همة بطنه وفرجه، وكان عمر أعور بين عميان، فإذا قيل عدل قال: إن من عدله أن لا يقبلها ممن لم يكن لها أهلاً، ويتولاها بغير استحقاق، وكان رجلهم هشام، وقد صدق أبو جعفر، وكان يقال لهشام: الأحول السراق لأنه ما زال يدخل عطاء الجند شهراً في شهر حتى أخذ لنفسه مقدار أرزاق سنة فلذلك قالوا: الأحول السراق، وقال خاله إبراهيم بن هشام المخزومي ما رأيت من هشام خطأ قط إلا مرتين فإن الحادي حدا به مرة فقال:

إن عليك أيها البختي أكرم من تمشي به المطى

فقال صدق قولك.

- (٢١) يشير المقرئ هنا إلى ضرب الأمويين الكعبة بالمنجنيق المرة الأولى عام ٦٦٤هـ. والمرة الثانية عام ٧٣هـ على يد الحجاج بن يوسف وذلك أثناء حركة ابن الزبير.
- (٢٢) المقصود أن معاوية والمروانيين من بعده سنوا سنة تقديس الحكام وربطهم بالشرع عن طريق طبقة الفقهاء التي اخترعوها وربط طاعتهم بطاعة الله وعدم رد قولهم أو مراجعتهم ثم تطاولوا بعد ذلك على الرسول (ص) وبني هاشم. وستأتي الإشارة لذلك.
- (٢٣) كان ذلك في عام ٧٤هـ بعد القضاء على ابن الزبير حين قام الحجاج بوضع اختام الرصاص في أعناق الصحابة. انظر كتب التاريخ.
- (٢٤) قام معاوية والمروانيين من بعده بتغيير الكثير من السنن التي سنّها الرسول (ص) فيما يتعلق بالصلاة وغيرها ويروى: أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية. رواه أبو يعلى وابن أبي شيبه.
- (٢٥) الإشارة هنا إلى ما حدث يوم الحرة.

وقال مرة: والله لأشكوّن سليمان بن عبد الملك إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان.

وهذا ضعف شديد وجهل عظيم.

وكان هشام يقول «والله لأستحي من الله أن أعطى رجلاً أكثر من أربعة آلاف درهم».

وقدّم هشام ابنه سعيداً على حمص فرمى بالنساء فكتب أبو الجعد الطائي إلى هشام مع خصى وأعطاه فرساً على أن يبلغ الكتاب وفيه:
ابلق لديك أمير المؤمنين فقد أمددتنا بأمر ليس عني
طوراً يخالف عمراً في حيلته وعند راحة يبغى الأجر والدين^(٢٦)

فعزله وقال: يا ابن الخبيثة تزنى وأنت ابن أمير المؤمنين، أعجزت أن تفجر فجور قريش قبل هذا؟ وقال: هذا لا يلي لى عملاً أبداً.

وحسبك من عبد الملك بن مروان قيامه على منبر الخلافة وهو يقول: «ما أنا بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المداهن، ولا بالخليفة المأفون. وهؤلاء هم سلفه وأئمة، وبشفعتهم قام ذلك المقام وتأسيسهم وتقدمهم نال تلك الرئاسة، ولولا العادة المتقدمة والأجناد المجتدة والصنائع القائمة لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام، فالمستضعف عنده عثمان بن عفان، والمداهن عنده معاوية، والمأفون عنده يزيد بن معاوية، والضعيف لا يكون خليفة لأنه الذي ينال القوى منه عند انتشار الأمر عليه، والمداهن لا يكون إماماً، ولا يوثق منه بعقد، ولا بوفاء عهد، ولا بضمير صحيح ولا بغيب كريم، والمأفون لا يكون إماماً، وهذا الكلام نقض لسلطانه، وعداوة لأهله وإفساد لقلوب

(٢٦) البيتان من العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٤/ ٤٤٨.

شيئته، وقرّة عين عدوه، وعجز في رايه، فإنه لم يقدر على إظهار قوته، إلا بأن يظهر عجز أئمتّه. وقد كانت المنافرة لا تزال بين بنى هاشم وبنى عبدشمس بحيث أنه قال: إنّ هاشمًا وعبدشمس ولدا توأمين فخرج عبدشمس في الولادة قبل هاشم وقد لصقت اصبع أحدهما بجبهة الآخر فلما نزعتم دمى المكان فقليل سيكون بينهما أو بين ولديهما دم فكان كذلك. ويقال: إن عبدشمس وهاشمًا كانا يوم ولدا في بطن واحد كانت جباههما ملصقة ببعضها ببعض فأخذ السيف ففرق بين جباههما بالسيف، فقال بعض العرب: ألا فرق ذلك بالدرهم فإنه لا يزال السيف بينهم وفي أولادهم إلى الأبد.

﴿ جذور العداة ﴾

وكانت المنافرة بين هاشم بن عبد مناف بن قصي وبين ابن أخيه أمية بن عبدشمس بن عبد مناف وسببها: أن هاشمًا كانت إليه الرفادة^(٢٧) التي سنّها جده قصي ابن كلاب بن مرة مع السقاية وذلك أن أخاه عبدشمس كان يسافر وقلمًا يقيم بمكة وكان رجلاً مقلًا وله ولد كثير فاصطالحت قريش على أن ولي هاشم السقاية والرفادة، وكان هاشم رجلاً موسرًا وكان إذا حضر موسم الحج قام في قريش فقال: «يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنكم يأتاكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته، وهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به حفظ منكم أفضل ما حفظه جار من جاره، فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شعثًا غبرًا من كل بلد على ضوامر كالقذاح وقد ازحفوا وتفلّوا وقملوا وأرملوا فاقروهم واغنوهم وأعينوهم»^(٢٨).

(٢٧) الرفادة من الرشد أى الإعانة.

(٢٨) المقصود أن الوافدين على بيت الله الحرام قد أخذ منهم السفر مأخذه فهزلوا من الجوع واتسخوا واحتاجوا.

فكانت قريش توافد على ذلك حتى أن كان أهل البيت ليرسلون بالشئ اليسير على قدرهم فيضمه هاشم إلى ما أخرج من ماله وما جمع مما يأتيه به الناس، فإن عجز كمله، وكان هاشم يخرج في كل سنة مالا كثيرا وكان قوم من قريش يترافدون، فكانوا أهل يسار فكان كل إنسان منهم ربما أرسل بمائة مثقال هرقلية^(٢٩).

وكان هاشم يأمر بحياض من آدم فتجعل في موضع زمزم من قبل أن تحضر زمزم، ثم يستقى فيها من الآبار التي بمكة فيشرب الحاج. وكان يطعمهم أول ما يطعمهم قبل التروية بيوم بمكة ويطعمهم بمنى وبحرفة وبجمع، فكان يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن، والسمن والسويق والتمر، ويحمل لهم الماء حتى يتفرق الناس لبلادهم.

وكان هاشم يسمى عمرا وإنما قيل له «هاشم» لهشمه الثريد وهو أول من أطعم الثريد بمكة وكان أمية بن عبدشمس ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم من إطعام قريش فعجز عن ذلك فشمت به ناس من قريش وعابوه، فغضب وناظر هاشما على خمسين ناقة سود الحديق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي جد عمرو بن الحمق الصحابي، وكان منزله عسфан وخرج مع أمية أبو همهمة حبيب بن عامر بن عميرة بن وديعة بن الحارث بن فهر بن مالك الضهري فقال الكاهن: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر، أول منه وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر».

فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين فكان هذا أول عداوة وقعت في بني هاشم وبني أمية، ولم يكن أمية في

(٢٩) هي العملة البيزنطية السائدة بين العرب آنذاك.

نفسه هناك وإنما رفعه أبوه وبنوه وكان مضعوقا وكان صاحب عهار يدل على ذلك قول
تفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حرب بن أمية وعبدالمطلب بن
هاشم فنفر عبدالمطلب وتعجب من إقدامه عليه وقال:

ابوك معاهر وابوه عفاً وذاد الفيل عن بلد حرام

وذلك أنَّ أمية كان يعرض لامرأة من بنى زهرة فضربه رجل منهم ضربة بالسيف
واراد بنو أمية ومن تابعهم إخراج زهرة من مكة، فقام دونهم قيس بن عدى السهمى
وكانوا أخواله وكان منيع الجانب شديد العارضة حمى الأنف أبى النفس، فقام دونهم
وقال وصاح «اصبح ليل» فذهبت مثلاً ونادى «الا إنَّ الضاعن مقيم»^(٣٠).

ففى هذه القصة يقول وهب بن عبد مناف بن زهرة:

مهلاً أمى فإن البغى مهلكة لا يكسبئك ثوباً شره ذكر
تبدو كواكبه والشمس طالعة يصب فى الكأس منه الصاب والمقر^(٣١)

وصنع أمية فى الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب زوج ابنه أبا عمرو بن
أمية امراته فى حياة منه، والمقتيون فى الإسلام هم الذين أولدوا نساء آبائهم
واستنكحوهن من بعد موتهم، وأما ان يتزوجها فى حياته ويبنى عليها وهو براء فإن هذا
لم يكن قط.

(٣٠) الضاعن الراحل.

(٣١) وهب بن عبد مناف هو جد الرسول (ص) لأمه. والمقر الشيء المر.

وأمية قد جاوز هذا المعنى ولم يرض بهذا المقدار حتى نزل عنها له وزوجها منه وأبو معيط بن أبي عمرو بن أمية قد زاد في المقت درجتين ثم نافر حرب بن أمية عبدالمطلب بن هاشم من أجل يهودى كان في جوار عبدالمطلب فما زال أمية يغرى به حتى قتل وأخذ ماله في خبر طويل.

وتعمدت العداوة بين البيتين حتى قام سيّد بنى هاشم أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم رسول الله (ص) بمكة يدعو قريشاً إلى توحيد الله تعالى جلت قدرته وترك ما كانت تعبد من دون الله فانتدب لعداوته (ص) جماعة بنى أمية منهم أبو أحيحة سعيد بن العاصى بن أمية حتى هلك على كفره بالله في أول سنة من الهجرة أو في سنة اثنين وهو يحادّ الله ورسوله، ومنهم عقبة بن أبى معيط أبان بن عمرو بن أمية، وكان أشدّ الناس عداوة لرسول الله (ص) وإذاً إلى أن قاتل يوم بدر فأتى به إلى رسول الله (ص) وقد أسر فأمر بضرب عنقه فجعل يقول:

يا ويلتى علام أقتل يا معشر قريش أقتل من بين هؤلاء!

فقال رسول الله (ص): لعدواتك لله ولرسوله.

فقال: يا محمد منك أفضل فاجعلنى كرجل من هؤلاء من قومى وقومك، يا محمد

من للصبيّة؟

قال: النار وضرب عنقه.

وقيل: إن رسول الله (ص) أمر به فصلب، فكان أول مصلوب فى الإسلام.

وقال عطاء عن الشعبي: إنّ رسول الله (ص) قال لعقبة بن أبي معيط يوم بدر: والله لأقتلنك.

ف قيل اتقتله من بين قريش؟

قال: نعم إنه وطئ على عنقي وأنا ساجد، فلما رفعت حتى طننت أن عيئي قد سقطت، وجاء وأنا ساجد بسلى شاة فألقاها على راسي، فأنا قاتله^(٣٢).

ومنهم الحكم بن أبي العاصي بن أمية وكان عاراً في الإسلام وكان مؤذياً لرسول الله (ص) بمكة يشتمه ويسمعه ما يكره، فلما كان فتح مكة أظهر الإسلام خوفاً من القتل. فلم يحسن إسلامه وكان مغموصاً عليه في دينه^(٣٣).

ثم قدم المدينة فنزل على عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية، وكان يطالع الأعراب والكفار بأخبار رسول الله (ص)، وبينما رسول الله (ص) يمشى ذات يوم مشى الحكم خلفه فجعل يختلج بأنفه وفمه كأثّه يحاكى رسول الله (ص)، يتفكك ويتمايل فالتفت رسول الله (ص) فرآه، فقال له: كن كذلك، فما زال بقية عمره على ذلك.

واطلع يوماً على رسول الله (ص) وهو في حجرة بعض نسائه فخرج إليه بعنزة فقال: من عذيري من هذا الوزغة لو أدركته لفقات عينه^(٣٤).

(٣٢) انظر سيرة ابن هشام ج ١.

(٣٣) مغموصاً أي مطعوناً محقراً.

(٣٤) انظر انساب الأشراف للبلاذري ج ١/ ١٢٤. وانظر مسلم كتاب الآداب والبخاري كتاب الاستئذان والديات.

وقال زهير بن محمد عن صالح بن أبي صالح قال: حدثني نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: كنا مع النبي (ص) فمر الحكم بن أبي العاصي فقال النبي (ص): ويل لأمتي مما في صلب هذا^(٣٥).

ثم إنَّ النبي (ص) لعنه وما ولد وغريه عن المدينة فلم يزل خارجاً عنها بقية حياة رسول الله (ص) وخلافة أبي بكر وعمر فلما استخلف عثمان رده إلى المدينة وولده فكان ذلك مما انكره الناس على عثمان، وكان اعظم الناس شؤماً على عثمان فإتَّهم جعلوا إدخاله المدينة بعد طرد النبي إياه وبعد امتناع أبي بكر وعمر من ذلك اكبر الحجج على عثمان ومات في خلافته فضرب على قبره فسقطاً^(٣٦).

وقد قالت عائشة لمروان بن الحكم: أشهد أنَّ رسول الله (ص) لعن أباك وانت في صلبه^(٣٧).

(٣٥) رواه الهيثمي. وانظر تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب معاوية بن أبي سفيان لابن حجر الهيثمي ملحق بكتابه الصواعق المحرقة.

(٣٦) نقل عن بعض فقهاء التبرير أن الحكم ذهب باختياره، ولم يطرده الرسول إلا أن كل الروايات تؤكد وقوع الطرد. انظر منهاج السنة لابن تيمية ج ٣ / ١٩٦ و ٢٣٥. وانظر العواصم من القواصم لأبي بكر بن العري. وقال ابن حزم: ونفى رسول الله (ص) لم يكن حداً واجباً ولا شريعة على التأييد. وإنما كان عقوبة على ذنب استحق به النفي. والتوبة مبسطة. فإذا تاب سقطت عنه تلك العقوبة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام وصارت الأرض كلها مباحة. انظر الفصل في الملل والنحل ج ٤ / ١٥٤. وتامل قوله بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام فكان المخالفين في هذا ليسوا من أهل الإسلام.

(٣٧) روايات لعن الحكم وأولاده وردت في عدة مصادر ففي رواية البزار، لقد لعن الله الحكم وما ولد على لسان نبيه. ويروى عن الحسين قوله في مروان: فو الله لقد لعنك الله على لسان نبيه (ص) وانت في صلب أبيك. وعن ابن الزبير قال: ورب الكعبة لقد لعن رسول الله (ص) فلانا - الحكم - وما ولد من صلبه. انظر تطهير الجنان واللسان. وقال ابن الأثير: رويت أخبار كثيرة في لعنه ولعن من في صلبه رواها الحفاظ وفي أسانيد كلام. الكامل، ج ٤ / ١٥.

وقال عبدالرحمن بن حسان بن ثابت لمروان بن الحكم:

إنّ اللعين أباك فارم عظامه إنّ ترم ترم مخلجاً مجنوناً
يضحي خميص البطن من عمل التقى ويظلل من عمل الخبيث بطينا

وكان الحكم هذا يقال له؛ طريد رسول الله ولعينه، وهو والد مروان بن الحكم الذي صارت الخلافة إليه بالغبلة وتوارثها بنوه من بعده، وكان رجلاً لا فقه له، ولا يعرف بالزهد، ولا برواية الآثار، ولا بصحبة، ولا ببعد همّة، وإنّما ولى رستاقاً من رساتيق داربجرد لأبن عامر، ثم ولى البحرين لمعاوية، وقد كان جمع أصحابه ومن تابعه ليبايع ابن الزبير حتى رده عبيد الله بن زياد وقال يوم مرج راهط والرؤوس تنبذ عن كواهلها.

وماذا لهم غير حين النفو س أى غلامى قريش غلب

وهذا كلام من لا يستحق أن يلى ربعا من الأرباع ولا خمسا من الأخماس.

فكان مروان أول من شق عصا للإسلام بغير تأويل وقال لخالد بن يزيد بن معاوية وام خالد يومئذ عنده؛ اسكت يا ابن الرطبة فكان حتفه فى هذه الكلمة^(٣٨).

وكتب عبدالملك بن مروان إلى محمد بن الحنفية؛ من عبدالملك امير المؤمنين إلى محمد بن الحنفية، فلما نظر إلى عنوان الصحيفة استرجع وقال؛ الطلقاء ولعناء رسول الله (ص) على سائر الناس والذى نفسى بيده إنها لأمر لا يقرّ قرارها.

(٣٨) لقي مروان حتفه على يد ام خالد خنقا بالوساده وقصته مشهورة فى كتب التاريخ. انظر أحداث عام ٦٥هـ.

ومنهم: عتبة بن ربيعة بن عبدشمس بن أمية أحد من عادى الله ورسوله إلى أن قتل ببدر كافرًا قتله حمزة بن عبدالمطلب رضى الله عنه، وعتبة هذا هو أبو هند بنت عتبة التى لاكت كبد حمزة بن عبدالمطلب رضى الله عنه، ثم لفظتها واتخذت مما قطعت منه مسكين ومعضدين وخدمتين واعطت وحشيًا قاتل حمزة، حليًا كان عليها من ورق وجزع وخواتيم ورق كانت فى أصابع رجلها كل ذلك شماتة بحمزة رضى الله عنه من أجل أنه قتل أباه عتبة رأس الكفر فى يوم بدر وقيل بل قتله عبيده بن الحارث بن عبدالمطلب وأنشدت هند:

عينى جودا بدمع سرب على خير خندف لم ينقلب
تداعى به رهطه قصرة بنو هاشم وبنو المطلب

وقيل: إنَّ عليًا لما فرغ من الوليد بن عتبة مال مع عبيدة على عتبة فقتلاه جميعًا، وهند هذه امر رسول الله (ص) يوم فتح مكة بقتلها فأسلمت، ولما حضرت مع النساء لتبايع بيعة الإسلام كان مما قال لهن رسول الله (ص) ولا تقتلن أولادكن، فقالت ربيناهم يا محمد صغارًا وقتلتهم كبارًا. وهى أم معاوية بن أبى سفيان الذى قاتل على بن طالب رضى الله عنه وأخذ الخلافة من الحسن بن على رضى الله عنه واستلحق زياد بن سمية من زنية واستخلف على الأمة ابنة يزيد القروذ وي زيد الخمور^(٣٩).

(٣٩) يزيد القروذ وي زيد الخمور يقصد بهما ولع يزيد بالقروذ وكان له قرد يلهو به مع سكره الدائم وعشقه للخمور. انظر سيرة يزيد فى كتب التاريخ. وانظر حوادث فتح مكة فى سيرة ابن هشام. وسيرة معاوية وتآمره على الحسن بدس السم له مشهورة بعد أن سلم له بالحكم شريطة أن يعود إليه بعد وفاته لكن معاوية اخترع ولاية العهد وأول ملكية فى الإسلام وجعل يزيد الفاسق يلى أمر المسلمين من بعده أن تخلص من الحسن. انظر الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر والاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر وكتب التاريخ والتراجم.

ومنهم: الوليد بن عتبة بن ربيعة وقتل ببدر كافراً قتله على رضى الله عنه،
والوليد هذا هو خال معاوية.

ومنهم: شيبه بن ربيعة بن عبدشمس عم هند أم معاوية، وكان يجتمع مع قريش
فيما تكيد رسول الله (ص) من الأذى وقتله الله يوم بدر فيمن قتل من أعدائه.

ومنهم: أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية قائد الأحزاب الذي قاتل رسول الله
(ص) يوم أحد وقتل من خيار أصحابه سبعين ما بين مهاجرى وانصارى، منهم أسد الله
حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم، وقاتل رسول الله (ص) فى يوم الخندق أيضاً وكتب إليه:

«باسمك اللهم أحلف باللات والعزى وساف ونائلة وهبل لقد سرت إليك أريد
استئصالكم فأراك قد اعتصمت بالخندق فكرهت لقاءنا ولك منى كيوم أحد».

وبعث بالكتاب مع أبى أسامة الجشمى فقراه على النبى (ص) أبى بن كعب رضى
الله عنه فكتب إليه رسول الله (ص): «قد اتانى كتابك وقديماً غرك يا أحمق بنى غالب
وسفيهم بالله الغرور، وسيحول الله بينك وبين ماتريد ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك
يوم اكسر فيه اللات والعزى وساف ونائلة وهبل يا سفيه بنى غالب.

ولم يزل يحاد الله ورسوله حتى سار رسول الله (ص) لفتح مكة فاتى العباس بن
عبدالمطلب رضى الله عنه رسول الله (ص) وقد أردفه وذلك أنه كان صديقه ونديمه فى
الجاهلية، فلما دخل به على رسول الله (ص) سألته أن يؤمنه فلما رآه رسول الله (ص)
قال له: ويلك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ فقال: بأبى أنت وأمى

ما أوصلك وأجملك وأكرمك؛ واللّه لقد ظننت أنّه لو كان مع اللّه غيره لقد أغنى عني شيئاً.

فقال: يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول اللّه؟ فقال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأجملك وأكرمك؛ أما هذه ففنى النفس منها شيء.

فقال له العباس: ويليك إشهد بشهادة الحق قبل أن تضرب عنقك، فشهد وأسلم، فهذا حديث إسلامه كما ترى.

واختلف في حس إسلامه فقيل: إنّه شهد حينئذ مع رسول اللّه (ص)، وكانت الأزلام معه يستقسم بها، وكان كهفاً للمنافقين وإنّه كان في الجاهلية زنديقاً.

وفى خبر عبد اللّه بن الزبير أنّه رآه يوم اليرموك قال: فكانت الروم إذا ظهرت قال أبو سفيان: إيه بنى الأصفر فإذا كشفهم المسلمون قال أبو سفيان:

وبنو الأصفر الملوك ملوك الر ... وم لم يسبق منهم مذكور^(٤٠)

فحدث به ابن الزبير أباه فلما فتح اللّه على المسلمين، فقال الزبير: قاتله اللّه يأبى إلا نفاقاً أو لسنا خيراً له من بنى الأصفر.

(٤٠) كان أبو سفيان من المؤلفة قلوبهم هو وولده معاوية واستمرا على ذلك حتى جاء عمر فالغى نصيب المؤلفة وعطل الحكم الشرعى فارتفع مقام أبو سفيان وولده. والحق أن ... نه هو وولده لا تؤكد إسلامه. انظر سيرة ابن هشام وكتب التاريخ.

وذكر عبدالرازق عن ابن المبارك عن مالك بن مغول - بالغين - عن ابن أبيجر قال، لما بويج لأبى بكر جاء أبو سفيان إلى على رضى الله عنه فقال:

اغلبك على هذا الأمر أقل بيت فى قريش، أما والله لأملأها خيلاً ورجالا إن شئت؟

فقال على: ما زلت عدوًّا للإسلام وأهله فما ضرَّ ذلك الإسلام وأهله شيئاً^(٤١).

وذكر المدائنى عن أبى زكريا العجلانى عن أبى حازم عن أبى هريرة قال: حج أبو بكر ومعه أبو سفيان بن حرب فكلّم أبو بكر أبا سفيان فرفع صوته، فقال أبو قحافة: إخفض صوتك يا أبا بكر عن ابن حرب، فقال أبو بكر: يا أبا قحافة إنّ الله بنى بالإسلام بيوتا كانت غير مبنية وهدم به بيوتا كانت فى الجاهلية مبنية، وبيت أبى سفيان مما هدم.

فليت شعرى بعد هذا بأى وجه يبنى بيت أبى سفيان بعدما هدمه الله؟.

وروى عن الحسن: أنّ أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه فقال:

«صارت إليك بعد تيم وعدى فأدرها كالكرة واجعل أوتادها بنى أمية فإنما هو الملك ولا أدرى ما جنة ولا نار.

فصاح به عثمان قم عنى فعل الله بك وفعل.

(٤١) انظر حوادث سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة النبى فى كتب التاريخ. وانظر السيف والسياسة للمعلق.

وأبو سفيان هذا هو أبو معاوية ولم يزل بعد إسلامه هو وابنه معاوية من
المولفة^(٤٢).

ومنهم: معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية، وهو الذي جدد أنف حمزة ومثل
به فيمن مثل، فلما انهزم يوم أحد دخل على عثمان بن عفان ليجيزه، وكان رسول الله
(ص) قد أمر بطلبه فأخرج من دار عثمان وأتى به رسول الله (ص) فوهبه لعثمان،
واقسم لئن وجده بعد ثلاث بالمدينة وما حولها ليقتلن فجهزه عثمان وسار في اليوم
الرابع.

فقال رسول الله (ص): إنَّ معاوية أصبح قريباً لم ينفذ فاطلبوه واقتلوه، فأصابوه
فأخذه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فقتلاه، وقيل: بل قتله على رضى الله عنه^(٤٣).

ومعاوية هذا هو أبو عائشة أم عبد الملك بن مروان، فعبد الملك بن مروان أعرق
الناس في الكفر، لأنَّ أحد أبويه الحكم بن أبي العاصى لعين رسول الله (ص) وطريده،
والآخر معاوية بن المغيرة.

ومنهم: حمالة الحطب واسمها أم جميل بنت حرب بن أمية كانت تحمل أغصان
العضاة والشوك فتطرحها على طريق رسول الله (ص).

قاله الضحاك عن ابن عباس، فقال مجاهد: حمالة النميمة تحطب على ظهرها
وإياها عنى الله تعالى بقوله في سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ
وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مِّسَدٍ
(٥)﴾.

(٤٢) أى حتى جاء عمر.

(٤٣) انظر أحداث غزوة أحد في سيرة ابن هشام وكتب التاريخ.

قيل: عنى أنّ في جيدها سلسلة من نار، أى من سلاسل جهنم، والجيد: العنق، ولما نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ (٥)﴾. قالت امرأة أبى لهب: قد هجاني محمد والله لأهجوته، فقالت: مذمماً قليلاً. ودينه أينا. وأمره عصينا.

واخذت فहरًا لتضربه به فأعشى الله عينها عنه وردّها بغیظها، ولم تزل على كفرها حتى هلكت (٤٤).

وما أحد من هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم إلا وقد بذل جهده فى عداوة رسول الله (ص) وبالغ فى اذى من اتبعه وآمن به، ونالوا منهم من الشتم وأنواع العذاب حتى فروا منهم مهاجرين إلى بلاد الحبشة، ثم إلى المدينة، وأغلقت أبوابهم بمكة فباع أبو سفيان ابن حرب بعض دورهم وقضى من ثمنها ديناً عليه.

وهموا بقتل رسول الله (ص) غير مرّة وتناظروا فى أمره ليخرجوه من مكة أو يقيّدوه ويحبسوه حتى يهلك أو يندبوا لقتله من كلّ قبيلة رجلاً حتى يتفرّق دمه فى القبائل.

وبالغ كل أحد منهم فى ذلك بنفسه وما له وأهله وعشيرته، ونصب لرسول الله (ص) الحبائل بكل طريق سرّاً وجهراً ليقتله، فلما أذن الله له فى الهجرة وخرج من مكة ومعه صاحبه أبو بكر إلى غار ثور، جعلوا لمن جاء بهما أو قتلها ديتهما ويقال: جعلوا له مائة بغير، ونادوا بذلك فى أسفل مكة وأعلىها.

كل ذلك حسداً منهم لرسول الله (ص) وبغياً ويأبى الله إلا تأييد رسول الله (ص)

(٤٤) انظر قصة حمالة الحطب فى سيرة ابن هشام وكتب التفسير. سورة اللهب.

وإعلاء كلمته حتى صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وظهر أمر الله وهم كارهون - كما ذكرت ذلك ذكرًا شافيًا في كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنبياء والأحوال والحفدة والمتاع (ص) والله در من قال:

عبد شمس قد أضرمت لبنى ها شم حريًا يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى وابن هند لعلى وللحسين يزيد

وما الأمر إلا كما قال الأخطل:

إنَّ العداوة تلقاها وإن قدمت

كالعرّ يكمن أحيائها ويتشر^(٤٥)

﴿ فصل في ذوى القرى ﴾

وأقول: هذا رسول الله (ص) قد أبعد بنى أمية عنه وأخرجهم من ذوى قرياه - كما خرجهم أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى في كتاب فرض الخمس فقال:

«حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيّب عن جبير بن مطعم قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله (ص) فقلنا: يا رسول الله أعطيت بنى المطلب وتركنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال رسول الله (ص): إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد.»

وقال الليث: حدثني يونس وزاد قال جبير: ولم يقسم النبى (ص) لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل.

(٤٥) العر - بفتح العين وضمها، الجرب. والبيت ورد في الكامل والمبرد ج ٢ / ٣١٠. وانظر ديوان الأخطل.

قال: ابن إسحاق وعبد شمس وهاشم والمطلب إخوة لأم عاتكة بنت مرة وكان نوفل أخاهم لأبيهم.

وذكره البخاري في مناقب قريش أيضًا وقال في غزوة خيبر: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن جبير بن مطعم أخبره قال: أتيت أنا وعثمان إلى النبي (ص) فقلنا: أعطيت بنى المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهو بمنزلة واحدة منك، فقال: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، قال جبير ولم يقسم النبي (ص) لبنى عبد شمس وبنى نوفل شيئًا.

وقد خرج أبو داود هذا الحديث من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب قال: حدثني جبير بن مطعم أن رسول الله (ص) لم يقسم لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل من الخمس، كما قسم لبنى هاشم ولبنى المطلب.

قال: وكان أبو بكر يقسم الخمس نحو قسم رسول الله (ص) غير أنه لم يكن يعطى قريى رسول الله (ص) كما كان يعطيهم رسول الله (ص)، وكان عمر يعطيهم ومن كان بعده منه^(٤٦).

واعلم أن قوله عن أبي بكر: إنه لم يكن يعطى ذوى القريى كما كان النبي (ص) يعطيهم إنما هو مما كان (ص) يعود به عليهم من سهمهم، وكانت حاجة المسلمين أيام أبي بكر أشد لا أنه منعهم الحق المفروض لهم الذى سماه الله تعالى ورسوله (ص) لهم فقد أعاده الله من ذلك^(٤٧).

(٤٦) الثابت أن حكم الخمس الذى كان يقسم لذوى القريى وهم بنى هاشم وبنى عبد المطلب قد

عطل ولا زال معطلا. والطائفة الوحيدة التى تعمل به وتطبقه هى الشيعة.

(٤٧) انظر ملحق الكتاب وفيه تعليق على هذا الكلام.

وخرَّج أبو داود من طريق محمد بن إسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيَّب قال: أخبرني جبير بن مطعم قال: فلما كان يوم خيبر وضع رسول الله (ص) سهم ذي القربى في بني هاشم وبني المطلب، وترك بني نوفل وبني عبد شمس فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا رسول الله (ص) فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركنا وقرابتنا واحدة؟

فقال رسول الله (ص): إننا وبني المطلب لا نفرق في جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد وشبك بين أصابعه .

وخرَّجه إسحاق بن راهويه عن الزهري عن ابن المسيَّب عن جبير مثل ما تقدّم، وفيه قال: فقسم رسول الله (ص) سهم خمس الخمس من القمح والتمر والنوى .

وقال الحسن بن صالح عن السدي في ذي القربى: هم بنو عبد المطلب.

وخرج النسائي من حديث سفيان عن قيس بن مسلم قال: سألت الحسن بن محمد عن قوله تعالى: «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإنَّ لله خمسُه» قال: هذا مفتاح كلام ولله الدنيا والآخرة.

قال: اختلفوا في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله (ص): سهم الرسول، وسهم ذي القربى، فقال قائل: سهم الرسول للخليفة من بعده، وقال قائل: سهم ذي القربى لقراة الرسول، وقال قائل سهم ذي القربى لقراة الخليفة، فاجتمع رأيهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكان ذلك في خلافة أبي بكر وعمر^(٤٨).

(٤٨) يشير المقرئ هنا إلى تعطيل حكم الخمس وصرفه في غير مصارفه الشرعية بتوجيه من الحكام.

وقد روى عن بعض طرق ابن إسحاق عن الزهرى عن ابن المسيب أنّ عثمان وجبير بن مطعم كلّما رسول الله (ص) فى سهم ذى القربى وقالوا: قسّمته بين بنى هاشم وبنى المطلب بن عبد مناف ونحن وبنو المطلب إليكم فى النسب سواء.

فقال رسول الله (ص): «إنا وهم لما نزل فى الجاهلية شيئاً واحداً وكانوا معنا فى الشعب كذا» وشبك أصابعه.

وكان من حديث الشعب على ما ذكر محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة فذكر ابن إسحاق أن النبى (ص) لما مضى على الذى بعث به وقامت بنو هاشم وبنو عبد المطلب دونه، وأبوا أن يسلموه وهم من خلافة على مثل ما قومهم عليه إلا أنهم انفوا أن يستذلوا ويسلموا أخاهم لمن فارقهم من قومه، فلما فعلت ذلك بنو هاشم وبنو المطلب وعرفت قريش ألا سبيل إلى محمد (ص)، معهم اجمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بنى هاشم وبنى المطلب ألا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم وكتبوا صحيفة فى ذلك وعلقوها بالكعبة.

ثم عدوا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد البلاء عليهم وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً.

وقال ابن عقبة: واجتمعت قريش فى مكرها أن يقتلوا رسول الله (ص) علانية فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بنى عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله (ص) شعبهم ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم ومن فعله إيماناً و يقيناً.

فلما عرفت قريش أنّ القوم منعوا رسول الله (ص) اجتمع المشركون من قريش وأجمع رأيهم: ألا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله (ص) للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق: أن لا يقبلوا من بنى هاشم أبداً صلحاً، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل.

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد وقطعوا عنهم الأسواق فلا تركوا طعاماً يقدم مكة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله (ص) ^(٤٩).

وذكر ابن إسحاق القصة في دخولهم الشعب، وما بلغوا من الجهد الشديد حتى كان يسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، حتى كره عامة قريش ما أصابهم وأظهروا كراحتهم لصحيفتهم الظالمة.

قال موسى بن عقبة: فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بنى عبد مناف ومن بنى قصي، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بنى هاشم، وراوا أنهم قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق، واجمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه، وبعث الله عز وجلّ على صحيفتهم التي المكر فيها برسول الله (ص) الأرضة فلحست كلّ ما كان فيها من عهد وميثاق، فلم تترك اسماً لله عز وجلّ فيها إلا لحسته، وبقي ما كان فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم.

وأطلع الله عز وجلّ رسوله (ص) على الذي صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله (ص) لأبي طالب فقال أبو طالب: لا والثواقب ما كذبني، وانطلق يمشي بعصا به من

(٤٩) انظر سيرة ابن هشام وهي شرح لسيرة ابن إسحاق.

بنى عبد المطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من قریش فلما راوهم عامدين لجماعتهم انكروا ذلك وظنوا أنهم خرجوا من البلاء فاتوهم ليعطوهم رسول الله (ص) فتكلم ابو طالب فقال:

قد حدثت امور بينكم لم نذكرها لكم فأتوا بصحيفتكم التى تعاھدتم عليها فلعلّہ ان يكون بيننا صلح، وإنما قال ذلك خشية ان ينظروا فى الصحيفة قبل ان يأتوا بها فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أنّ الرسول مدفوع إليهم فوضعوها بينهم وقالوا قد آن لكم ان تقبلوا وترجعوا إلى امر يجمع قومكم فأنما قطعه بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطراً لهلكه قومكم وعشيرتكم وفسادهم.

فقال ابو طالب إنما اتيتكم لأعطيتكم امرًا لكم فيه نصف إنّ ابن اخى قد اخبرنى فلم يكذبنى أنّ الله عز وجل برىء من هذه الصحيفة التى فى ايديكم ومضى لكل اسم له فيها وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان الحديث الذى قال ابن اخى كما قال فأفيقوا فو الله لا نسلّمه أبداً حتى يموت من عند آخرنا، وإن كان باطلاً دفعناه إليكم فقتلتهم او استحييتهم قالوا قد رضينا بالذى تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدق (ص) قد اخبر خبرها فلما رأتها قریش كالذى قال ابو طالب قالوا: والله إن كان هذا قط إلا سحراً عن صاحبكم فارتكسوا وعادوا لشر ماكانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله (ص) والمسلمين والقيام بما تعاھدوا عليه، فقال أولئك النفر من بنى عبدالمطلب: إنّ أولى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون وإنا نعلم أنّ الذى اجتمعتم عليه من قطيعتنا اقرب إلى الجبت والسحر من امرنا، ولولا انكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهى فى ايديكم طمس الله ما فيها من اسم له. وما كان من بغى تركه افنح السحرة ام انتم؟

فقال النفر من بنى عبد مناف وبنى قصى ورجال من قریش ولدتهم نساء من بنى

هاشم منهم أبو البختري والمطعم بن عدى وزهير بن أبى أمية بن المغيرة وزمعة بن الأسود وهشام بن عمرو، وكانت الصحيفة عنده فى رجال من اشرافهم ووجوههم: نحن براء مما فى هذه الصحيفة، فقال أبو جهل: هذا امر قضى ليل قال موسى بن عقبة: فلما افسد الله صحيفة مكرهم خرج رسول الله (ص) ورهطه فعاشروا وخالطوا الناس (٥٠).

فانظر رحمك الله كيف لم يجعل رسول الله (ص) القرابة فى النسب وحدها قرابة معتبرة فى احكام الله عز وجل ما لم تقترن بها القرابة الدينية فإنه كما قد رايت اخرج بنى أمية من ذوى القربى مع كونهم بنى أبيه عبد مناف بن قصى لما كان من عداوتهم له فى دين الله تعالى وتكذيبهم لما جاء به من النبوة والرسالة.

وكيف جعل بنى المطلب بن عبد مناف من ذوى القربى لأجل مسالمتهم له فى الجاهلية وتسرعهم إلى مناصرتة ومؤازرتة وموالاته ومعاضدته وأنهم لم يربؤوا بأنفسهم عن نفسه بل امدوه بأنفسهم حيث تخلى عنه الناس ودخلوا معه الشعب مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمن ديننا والكافر حمية.

وتأمل ذلك يظهر لك منه فائدتان.

إحدهما: أنّ العبرة بقرابة الدين لا بقرابة الطين. والثانية: أنّ مجرد القرابة ليس بشيء وقد قيل اقرب الوسائل المودة وأبعد النسب البغضاء قال:

وأرى القرابة لا تقرب قاطعاً وأرى المودة أكبر الأسباب

وقال الأعشى:

ولا تطلبنَّ الود من متباعد ولا تأمنن ذى بغضة إن تقربا
فإنَّ القريب من يقرب نفسه لعمر أبيك الخير لا من تنسبا

فإذا أقرب الوسائل المودة، وأبعد النسب العقوق، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات، ١٠. فقاربت ولاية الإسلام بين الغرباء.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ هود: ١١. فباعد به بين القرابة.

﴿فصل فى استحقاق بنى أمية للخلافة﴾

ثم إنى أقول يا عجباً كيف يستحق خلافة رسول الله (ص) على أمته شرعاً من لم يجعل له حقاً فى سهم ذى القربى أم كيف يقيم دين الله من قاتل رسول الله (ص)، ونابذه وكأيدته وبذل جهده فى قتله وليت إذ ولى بنو أمية الخلافة عدلوا وانصفوا بل جاروا فى الحكم وعسفوا واستأثروا بالضىء كلّه وحرموه بنى هاشم جملة وزادوا فى العتو والتعدى حتى قالوا إنما ذو القربى قرابة الخليفة منهم وحتى قرروا عند أهل الشام أنه لا قرابة لرسول الله (ص) يرثونه إلا بنى أمية، فلما قام بالأمر أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس المنعوت بالسفاح، وقتل مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم آخر خلائف بنى أمية وأزال دولتهم دخل عليه مشيخة من أهل الشام، فقالوا والله ما علمنا أن لرسول الله (ص) قرابة يرثونه إلا بنى أمية حتى وليتم فقال إبراهيم بن مهاجر:

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجبنا زاد على كل عجب
عجبنا من عبد شمس إنهم فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس وعبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه يحرز الميراث إلا من قرب

وحتى صعد الحجاج بن يوسف يوماً أعواد منبره وقال على رؤوس الأشهاد:
ارسولك أفضل أم خليفتك؟ يعرض بأنَّ عبد الملك بن مروان بن الحكم أفضل من رسول
الله (ص) فلما سمعه جبلة بن زحر قال: لله على الاصلى خلفه ابداً وإن رأيت من
يجاهده لأجاهدنه معه، فخرج مع عبدالرحمن بن الأشعث وقتل معه.

ولقد اقتدى بعدو الله الحجاج في كفره ابن شقى الحميرى؛ فإنه قام بمجلس
هشام بن عبد الملك، وقال أمير المؤمنين خليفة الله وهو أكرم على الله من رسوله فأنت
خليفة ومحمد رسول الله، وحتى أن يوسف بن عمر عامل هشام قال في خطبته يوم
الجمعة إنَّ أول من فتح على الناس باب الفتنة وسفك الدماء علىَّ وصاحبه الزنجي
يعنى عمار بن ياسر رضى الله عنه، فهذا كما ترى وإلى الله المشتكى.

وقد خرج الحاكم من حديث سفيان عن أبى إسحاق عن عمرو ذى مر عن على بن
أبى طالب رضى الله عنه فى قوله عز وجل: «وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ» [إبراهيم: ٢٨] قال:
هما الافجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فقد قطع الله دابرهم
يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح.

وسئل على رضى الله عنه عن بنى أمية وبنى هاشم فقال هم أكثر وانكر وأمكر،
ونحن أفصح وأصبح وأسمح.

وقال أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا حشرج بن نباتة قال حدثنى سعد بن جمهان
قلت لسفينة أن بنى أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، فقال كذب بنو الزرقاة بل هم ملوك
من أشد أشد الملوك وأول الملوك معاوية.

وما زلت طول الأعوام الكثيرة أعمل فكرى فى هذا وأشباهه التى يطول ذكرها
واذاكر به من أدركت من مشيخة العلم ومن لقيت من حملة الآثار ونقلة الأخبار فلا أجد
فى طول عمرى سوى رجلين: إما رجل عراه ما عرانى وساء ماقد دهانى فهو يحذو فى
المقال حذوى ويشكو من الألم شكواى.

وإما رجل يرتع فى ميدان تقليده ويجول فى عرصات تهوره وتفنيده، فلا يزيدنى
على التهويل والهدر الطويل إلى أن اتضح لى والحمد لله وحده سبب أخذ بنى أمية
الخلافة ومنعها بنى هاشم، وذلك أن اعجاز الأمور لا تزال أبداً تالية لصدورها، وإلا
سافل من كل شئ تابعة لأعاليها وكل أمر كان خافياً إذا انكشف سببه زال التعجب منه،
وما بعد على من سبب أخذ بنى أمية الخلافة وتقدمهم فيها على بنى هاشم إلا من أجل
الاعراض عن الاعتناء بتعرف أوائل ذلك، وقلة البحث عن غوامضه وإن الشئ لم يوضع
فى موضعه وإنما سلك فيه الكافة إلا قليلاً مذهب التعصب.

﴿فصل فى عمال الرسول (ص) من بنى أمية﴾

والواجب على العاقل بعد معرفة ماخضى من السبب الاذعان والتسليم وترك
الاعتراض فماذا بعد الحق إلا الضلال وذلك أنه لا خلاف بين أئمة الحديث ونقاد

الأخبار وعلماء السير والآثار، أن الرسول (ص) توفى وعامله على مكة أبو عبد الرحمن عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، أحد من أسلم يوم فتح مكة وأنه لم يزل على مكة منذ فتحها الله على رسوله (ص) عام ثمان من الهجرة إلى أن توفاه الله عز وجل فأقر أبو بكر عتاباً حتى ماتا في يوم واحد.

وكان (ص) قسم اليمن بين خمسة رجال خالد بن سعيد على صنعاء والمهاجر بن أبي أمية على كندة وزيايد بن ليبيد على حضرموت ومعاد بن جبل على الجند، وأبا موسى الأشعري على زبيد ورمع وعدن، فكان عامل رسول الله (ص) على صنعاء اليمن كما تقدم خالد بن سعيد بن العاصي بن أمية بن عبد شمس بعثه (ص) إليها سنة عشر من الهجرة، وقد مات باذام ليكون على صدقات اليمن، فتوفى رسول الله (ص) وخالد على اليمن.

وكان أبان بن سعيد بن العاصي بن أمية على البحرين برها وبحرها منذ عزل العلاء بن الحضرمي حليف بني أمية، وقيل بل مات رسول الله (ص) والعلاء على البحرين وكان عمرو بن سعيد بن العاصي بن أمية على إيماء وخيبر وتبوك وفدك، فلما توفى رسول الله (ص) رجع خالد بن سعيد وأبان وعمرو عن عمالتهم.

فقال أبو بكر ما لكم رجعتن عن عمالتكم ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله (ص) ارجعوا إلى أعمالكم فقالوا نحن بنو أبي احيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله (ص) أبداً، ثم مضوا إلى الشام وقاتلوا فقتلوا في مغازيها، فيقال ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاصي ميتاً.

وكان أبو سفيان بن حرب بن أمية على نجران فمات رسول الله (ص) وهو عليها

وقيل بل كان على نجران لما توفى رسول الله (ص) وعمرو بن حزم بن زيد بن عمرو بن عبد عوف بن غنم بن مالك بن النجار الأنصاري.

قال الواقدي عن إبراهيم بن جعفر عن أبيه عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال توفى رسول الله (ص) وأربعة من بني أمية عماله عتاب بن أسيد على مكة، وأبان بن سعيد بن العاصي على البحرين وخالد بن سعيد على صنعاء، وأبو سفيان بن حرب على نجران^(٥١).

قال الواقدي: أصحابنا مجمعون على أن رسول الله (ص) قبض وأبو سفيان حاضر.

وقال ابن الكلبي: كان أبو سفيان غائباً فلما قدم قال: كيف رضيتم يا بني عبد مناف أن يلي أمركم غيركم وقوم يقولون أن رسول الله (ص) ولي أبا سفيان صدقات خولان ونخلة وولي يزيد بن أبي سفيان على نجران والله أعلم.

وكان على جرش سعيد بن القشب الأزدي حليف بني أمية، فمات رسول الله (ص) وهو عليها وكان المهاجرين أمية بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم المخزومي أخو أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها على صدقات كندة والصدف، ثم ولاه أبو بكر اليمن.

وكان عمرو بن العاصي بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم السهمي حين وفاة

(٥١) انظر التعليق على هذا الكلام في الملحق. والواقدي هو محمد بن عمر بن واقد الأسلمي ولي قضاء بغداد له المغازي والسير توفي عام ٢٠٧هـ.

رسول الله (ص) على عمان بعدما بعثه النبي (ص) على سرية نحو الشام إلى أخوال أبيه العاصي بن وائل من بلى يدعوهم إلى الإسلام ويستنفرهم إلى الجهاد، ثم أمده رسول الله (ص) بجيش فيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم فصلوا خلفه (٥٢).

ثم عمل عمرو بن العاصي بعد رسول الله (ص) لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وكان على الطائف عثمان بن أبي العاصي بن بشر بن عبد دهمان الثقفي ومات رسول الله (ص) وهو عليها.

فإذا كان رسول الله قد أسس هذا الأساس وأظهر بني أمية لجميع الناس بتولييتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يتحد في الولاية أمهم؟.

أم كيف لا يضعف أمل بني هاشم وينقبض رجاؤهم ويقصر أمهم وكبيراهم العباس بن عبدالمطلب وابن أخيه على بن أبي طالب رضى الله عنهما يريد أحدهما استعمال رسول الله (ص) في مرض موته عن هذا الأمر هل هو فيهم أم في غيرهم ويأبى الآخر ذلك.

كما أخرج البخاري من حديث الزهري قال أخبرني عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري أن عبد الله بن عباس أخبره أن على بن أبي طالب رضى الله عنه خرج من عند رسول الله (ص) في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس يا أبا الحسن كيف أصبح -

(٥٢) الغزوة المشار إليها هنا هي غزوة ذات السلاسل. انظر سيرة ابن هشام والبخاري كتاب الفضائل باب فضائل أبي بكر وشرح الحديث في فتح الباري ج ٧.

رسول الله (ص) قال أصبح بحمد الله بارئاً فأخذ بيده عباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه فقال له أنت والله بعد ثلاث عبد العصا وإنى والله لأرى رسول الله (ص) يتوفى من وجعه هذا وإنى لا أعرف وجوه بنى عبدالمطلب عند الموت اذهب بنا إلى رسول الله (ص) فلنسأله فى هذا الأمر إن كان فينا علمنا ذلك وإن كان فى غيرنا علمناه فأوصى بنا، فقال على إنا والله لئن سألناها رسول الله (ص) فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده وإنى والله لا أسألها من رسول الله (ص) (٥٣).

ورواه محمد بن إسحاق عن الزهرى إلا أنه لم يذكر ما قال فى العصا، وزاد فى آخره فتوفى رسول الله (ص) حين اشتد الضحى من ذلك اليوم.

وفى رواية: وخلا العباس بعلى، فقال له: هل تعلم أن رسول الله (ص) أوصى إلى غيرك بشيء؟ فقال على: اللهم لا، فخرج العباس على بغلة له حتى أتى عسكر أسامة بن زيد فلقى أبا بكر وعمر وغيرهما، فقال: هل أوصاكم رسول الله (ص) بشيء قالوا: لا، فرجع إلى على فقال: إن رسول الله (ص) مقبوض فامدد يدك أبايعك، فيقال عم رسول الله (ص) بايع ابن عم رسول الله وبيايحك أهل بيتك فإن مثل هذا الأمر لا يؤخر فقال: يرحمك الله ومن يطلب هذا الأمر غيرنا يا عم؟

وفى رواية أن العباس قال لعلى هلم يدك أبايعك، فقال إن لى برسول الله شغلا ومن ذاك الذى ينازعنا هذا الأمر؟

ورواية البخارى وعبدالرزاق أثبت، وقال ابن سعد أخبرنا محمد بن عمر حدثنى محمد بن عبد الله بن أخى الزهرى، قال سمعت عبد الله بن حسن يحدث عمى الزهرى

يقول حدثتني فاطمة بنت الحسين قالت لما توفي رسول الله (ص) قال العباس يا علي قم حتى ابايعك ومن حضر فإن هذا الأمر إذا كان لم يرد مثله، والأمر في أيدينا.

فقال علي واحد يطمع فيه غيرنا.

فقال العباس، أضن والله سيكون.

فلما بويع لأبي بكر ورجعوا إلى المسجد سمع علي التكبير. فقال: ما هذا؟ فقال العباس هذا ما دعوتك إليه فابيت علي؟ فقال علي: أكون هذا؟ فقال العباس مارد مثل هذا قط.

فقال محمد بن عمر الواقدي قد خرج أبو بكر من عند النبي (ص) حين توفي وتخلف عنده علي والعباس والزيير، فذلك حين قال العباس هذه المقالة، وأخرجه عبدالرزاق عن معمر عن الزهري بمعناه، قال عبدالرزاق وكان معمر يقول لنا أيهما كان أصوب عندكم رأياً فنقول: العباس فيأبى ثم قال: لو أن علياً سألها فأعطاه إياها فمنعه الناس كانوا قد كفروا.

قال عبدالرزاق فحدثت به ابن عيينة فقال: قال الشعبي لو أن علياً سألها عنها كان خيراً له من ماله وولده.

وروى إسماعيل بن خالد عن الشعبي قال: قال العباس لعلي رضي الله عنهما حين مرض النبي (ص) إني أكاد أعرف في وجه رسول الله (ص) الموت فانطلق بنا إليه نسأله من يستخلف فإن استخلف منا فذاك وإلا أوصى بنا، فقال علي للعباس: كلمة

فيها جفاء فلما قبض النبي (ص) قال العباس لعلی: ابسط يدك فلنبايعك فقبض يده قال الشعبي لو ان عليًا اطاع العباس كان خير له من حمر النعم^(٥٤).

﴿فصل فيما ورد في بنى امية﴾

وقد رويت مع هذا الحديث احاديث اخرى إن كانت صحيحة فلا سبيل إلى ردها وإن كانت مفتعلة فقد صارت داعية إلى الأمر الذي وقع النزاع فيه وطال الخصام عليه.

منها ما رواه ابن الكلبي عن الحكم بن هشام الثقفي قال مات عبيد الله بن جحش عن ام حبيبة بنت ابي سفيان وكانت معه بأرض الحبشة فخطبها (ص) إلى النجاشي فدعا بالقريشين، فقال: من اولاكم بأمر هذه المرأة؟

فقال خالد بن سعيد بن العاصي انا اولاهم بها قال فزوج نبيكم، قال فزوجه ومهر عنه النجاشي اربعمائة دينار، فكانت اول امرأة مهرت اربعمائة دينار وحملت إلى النبي (ص) ومعها الحكم بن ابي العاص فجعل النبي (ص) يكثر النظر إليه.

فقال يا رسول الله إنك لتكثر النظر إلى هذا الشاب.

فقال ليس ابن المخزومية؟

قالوا: بلى.

قال: إذا بلغ بنو هذا اربعين رجلاً كان الأمر فيهم^(٥٥).

وكان مروان بن الحكم إذا جرى بينه وبين معاوية بن ابي سفيان كلام قال لمعاوية إنى والله لأبوء عشرة واخو عشرة وعم عشرة وما بقى إلا عشرة حتى يكون الأمر فى، فيقول معاوية أخذاً والله من عين صافية فهذا الحديث كما تسمع.

(٥٤) انظر تطهير الجنان واللسان.

(٥٥) رواه البزار، إذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلاً.

وقد روى أبو بكر بن أبي شيبه من حديث عبد الله بن عمير، قال: قال معاوية ما زلت أطمع في الخلافة مذ قال رسول الله (ص) إن ملكتي يا معاوية فأحسن^(٥٦).

قال وكيع عن الأعمش عن أبي صالح قال: كان الحادي يحدو بعثمان رضى الله عنه ويقول:

إن الأمير بعده على وفى الزبير خلف رضى

فقال كعب الأحبار بل هو صاحب البغلة الشهباء يعنى معاوية فبلغ ذلك معاوية فأتاه، فقال يا أبا إسحاق ما تقول هذا وها هنا على والزبير وأصحاب محمد (ص) قال أنت صاحبها.

وقد جاء من طرق عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال: «رأيت في النوم بنى الحكم أو بنى أبي العاص ينزون على منبري كما تنزوا القردة» قال: فما رأى النبی (ص) مستجمعا ضاحكا حتى توفي^(٥٧).

وعن سعيد بن المسيب قال: رأى النبی (ص) بنى أمية على منابرهم فسأه ذلك فأوحى إليه إنما هي دنيا أعطوها فقرت عينه وهي قوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ» [الإسراء: ٦٠].

يعنى بلاء للناس وقد روى أن رجلا قام إلى الحسن بن على رضى الله عنهما فقال

(٥٦) انظر الإصابة ترجمة معاوية.

(٥٧) انظر تطهير اللسان.

(يامسود وجوه المؤمنين) فقال: لا تؤنبنى رحمك الله فإن رسول الله (ص) قد رأى بنى امية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً فسأه ذلك فنزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ - والكوثر نهر فى الجنة - ونزلت ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يعنى تملك بنى امية فحسب ذلك فإذا هو لا يزيد ولا ينقص.

وعن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى أن رسول الله (ص) قال إذا بلغ بنو أبى العاصى أربعين رجلاً اتخذوا دين الله دغلاً وعباد الله خولاً ومال الله دولاً.

قال الزبير بن بكار قال عمى مصعب عن عبد الله بن محمد بن يحيى بن عروة بن الزبير أو غير عبد الله وحدثنيه محمد بن الضحاك الحزامى عن أبيه أن عمرو بن عثمان بن عفان اشتكى وكان العواد يدخلون عليه فيخرجون وتخلف مروان بن الحكم عنده فيطيل فانكرت رملة بنت معاوية ذلك وهى امرأة عمرو بن عثمان فخرقت كوة واستمعت على مروان فإذا هو يقول لعمرى ما أخذ هؤلاء الخلافة إلا باسم أبىك فما يمنعك أن تنهض بحقك فنحن أكثر منهم رجلاً منا فلان ومنهم فلان ومنا فلان ومنهم فلان حتى عدد رجلاً، ثم قال ومننا فلان وهو فضل وفلان وهو فضل حتى يعدد فضول رجال بنى أبى العاص على بنى حرب فلما برا عمرو تجهز للحج وتجهزت رملة فى جهازه، فلما خرج عمرو إلى الحج خرجت رملة إلى أبيها فقدمت عليه الشام فقال لها معاوية واسواتاه وما للحرّة تطلق طلقك عمرو فأخبرته الخبر وقالت وما زال يعد فضل رجال بنى أبى العاص على بنى حرب حتى إبنى عثمان وخالد بن عمرو فتمنيت أنهما ماتا فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم،

أواضع رجل فوق أخرى تعدنا عديد الحصى ما أن تزال تكاثر
وامكم تزجى تواماً لبعلاها وام أخيكم نزره الولد عاقر

وأشهد يا مروان أنى سمعت رسول الله (ص) يقول: إذا بلغ ولد الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولة ودين الله دخلاً وعباد الله خولاً فكتب إليه مروان، أما بعد يا معاوية فإنى أبو عشرة وعم عشرة والسلام.

وروى عن معاوية أنه قال لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما انشدك الله يا بن عباس أما تعلم أن رسول الله (ص) ذكر هذا - يعنى مروان بن الحكم - فقال أبو الجبابرة الأربعة فقال ابن عباس اللهم نعم.

﴿فصل الخلفاء وبنى أمية﴾

وقد اقتدى برسول الله (ص) فى ولاية الأعمال أبو بكر فإنه لما استخلف بعد رسول الله (ص) وارتدت العرب قطع البعوث وعقد أحد عشر لواء على أحد عشر جنداً فعقد لخالد بن الوليد المخزومى وبعثه لقتال طليحة بن خويلد الأسدى ثم مالك بن نويرة وعقد لعكرمة بن أبى جهل المخزومى وبعثه لقتال مسليمة بن ثمامة بن المطوح بن ربيعة الحارث وعقد للمهاجر بن أبى أمية المخزومى وبعثه لقتال جنود الأسود بن كعب ابن عوف العنسى ومعوثة الأبناء على قيس بن المكشوح.

وعقد لخالد بن سعيد العاصى بن أمية وبعثه إلى مشارف الشام.

وعقد إلى عمرو بن العاص وبعثه إلى قضاة وعقد لحذيفة بن محصن العلقانى من علقان بن شرحيل بن عمرو بن مالك بن يزيد ذى الكلاح وبعثه إلى أهل دبا، وهى مدينة قديمة من مدن عمان.

وعقد لعرفجة بن هرثمة وبعثه إلى مهرة وبعث شرحبيل بن حسنة فى أثر عكرمة ابن أبى جهل فإذا فرغ من الإمامة لحق قضاة.

وعقد لطريفة بن حاجم وبعثه إلى بنى سليم ومن معهم من هوزان وعقد لسويد ابن مقرن بن عائذ المزنى، وبعثه إلى تهامة اليمن.

وعقد للعلاء بن الحضرمي وبعثه إلى البحرين فلحق كل أمير بجنده حتى انقضت حروب الردة، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد لفتح العراق وأردفه بغيلان ابن غنيم بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة هلال بن وهيب الفهري وأمدهما بالقعقاع بن عمرو وجهز الجنود إلى الشام فبعث خالد بن سعيد بن العاصي وأردفه بذي الكلاع وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاصي والوليد بن عقبة وعقد ليزيد بن أبي سفيان بن حرب على جيش عظيم هو جمهور من انتدب إليه وجهزه عوضاً عن خالد بن الوليد.

وعقد لأبي عبيدة بن الجراح وبعثه إلى حمص، وأمد يزيد بن أبي سفيان بأخيه معاوية بن أبي سفيان ومعه جيش فنزل أبو عبيدة الجابية، ونزل يزيد البلقاء، ونزل شرحبيل بن حسنة الأردن، وقيل بصرى، ونزل عمرو بن العاص القريات.

ولما مات أبو بكر واستخلف من بعده عمرو بن الخطاب كانت عماله على مكة نافع بن عبد الحارث الخزاعي، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص بن أمية، ثم سفيان بن أبي عبد الله الثقفي، وعلى اليمن يعلى بن منبه، وعلى عمان واليمامة حذيفة بن محصن، وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي، ثم عثمان بن أبي العاص، وعلى الكوفة سعد بن أبي وقاص، ثم المغيرة بن شعبه، ثم عمار بن ياسر، ثم أبو موسى الأشعري وعلى البصرة المغيرة بن شعبه، ثم أبو موسى الأشعري، وعلى الشام أبو عبيدة بن الجراح، ثم يزيد بن أبي سفيان، ثم معاوية بن أبي سفيان وعلى الجزيرة عياض بن غنم وعلى مصر عمرو بن العاص.

فانظر كيف لم يكن في عمال رسول الله (ص) ولا في عمال أبي بكر وعمر أحد من بني هاشم فهذا وشبهه هو الذي حدد أنياب بني أمية وفتح أبوابهم واترع كاسهم وقتل أمراسهم حتى لقد وقف أبو سفيان بن حرب على قبر حمزة رضى الله عنه فقال رحمك الله أبا عمارة لقد قاتلتنا على أمر صار إلينا^(٥٨).

وروى أن الأمر لما افضى إلى عثمان بن عفان أتى أبو سفيان قبر حمزة فركله برجله، ثم قال: يا حمزة إنَّ الأمر الذي كنت تقاتلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم وكنا أحق به من تيم وعدى.

قال كاتبه: وما هي إلا الدنيا وإنَّ الدين لعارض فيها والعاجلة محبوبة، وبهذا ارتفعت رؤوس وضعفت نفوس فإن دلائل الأمور تسبق وتباشير الخير تعرف ولله في خلقه قضاء يمضيه ويبى الله أن يتم شيء من أمر الدنيا إلا ويعتريه النقص.

﴿فصل اختصاص بني هاشم﴾

لما كانت بنو هاشم من قریش اختصها الله سبحانه بهذا الأمر أعنى الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب فحازت بذلك الشرف الباقي وكانت أحوال الدنيا من الخلافة والملك ونحوه زائلة لهذا أزواها الله تعالى عنهم تنبيهًا على شرفهم وعلو مقدارهم فإن ذلك هو خيرة الله لنبيه محمد (ص) كما ثبت أنه (ص) لما خير اختار أن يكون نبيًا عبدًا ولم يختار أن يكون نبيًا ملكًا، وسأل مثل ذلك لآله كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص) اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا.

وروى أبو عيسى الترمذی حديث عبید الله بن زحر عن علی بن یزید عن القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي امامة عن النبي (ص) قال: عرض على ربي ليجعل لى بطحاء

(٥٨) انظر التعليق على هذا الكلام في الملحق.

مكة ذهباً قلت لا يارب ولكن اشبع يوماً وأجوع يوماً، أو قال ثلاثاً، أو نحو هذا فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك، وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

واخرج البخارى من حديث ابن أبى ليلى حدثنا على رضى الله عنه أن فاطمة عليها السلام اشتكت ما تلقى من الرحى مما تطحن فبلغها أن رسول الله (ص) أتى بسبى فأتته تسأله خادماً فلم توافه فذكرت لعائشة فجاء النبى (ص) فذكرت ذلك عائشة له فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم، فقال على مكانكما فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدرى فقال الا ادلكما على خير مما سألتما إذا اخذتما مضاجعكما، فكبرا اربعاً وثلاثين واحمداً ثلاثاً وثلاثين وسبحاً ثلاثاً وثلاثين فإن ذلك خير لكما مما سألتما.

واخرجه مسلم أيضاً ولأبى داود من حديث أبى الورد عن على بن أعبد قال: قال لى على رضى الله عنه الا أحدثك عنى وعن فاطمة بنت رسول الله (ص) وكانت من أحب أهله إليه، قلت بلى، قال فإنها جرت بالرحى حتى أثر فى يدها واستقت بالقربة حتى أثر فى نحرها وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها فأتى النبى (ص) خدم فقلت لو أتيت أباك فسألتيه خادماً فأتته فوجدت عنده حداً فرجعت فأتاها من الغد فقال: ما كان حاجتك فسكنت فقلت: أنا أحدثك يا رسول الله جرت الرحى حتى أثرت فى يدها، وحملت القربة حتى أثرت فى نحرها فلما أن جاء الخدم امرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً تقيها حرماً هي فيه، فقال اتقى الله يا فاطمة وأدى فريضة ربك واعملى عمل أهلك. فإذا أخذت مضجعك فسبحى ثلاثاً وثلاثين، واحمدى ثلاثاً وثلاثين، وكبرى اربعاً وثلاثين، فهى خير لك من خادم. قالت رضيت عن الله وعن رسوله.

وفى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عامر بن سعد عن ابيه عن النبى (ص) انه قال: انى لأعطى الرجل وغيره احب إلى منه خشية ان يكب فى النار على وجهه.

وفى رواية: فو الله انى لأعطى الرجل وادع الرجل والذى ادع احب إلى من الذى اعطى ولكنى اعطى اقواما لما ارى فى قلوبهم من الجزع والهلع فأكل اقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ومن حديث انس بن مالك عن النبى (ص) (انه قال) فإنى اعطى رجالا حديثى عهد بكفر اتألفهم.

وروى ابن وهب من عمرو بن الحارث أن بكر بن سودة حدثه أن ابا سالم الجيشانى حدثه عن ابي ذر أن رسول الله (ص) قال له: كيف ترى جعيلا - جعيل بن سراقه؟

قال: قلت كشكله من الناس قال: فكيف ترى فلانا قلت سيدا من سادات الناس، قال: فجعيل خير من ملء الأرض ذهباً او القا ونحو ذلك من فلان، قال: قلت يا رسول الله ففلان هكذا وانت تصنع به ما تصنع قال إنه راس قومه وانا اتألفهم به.

قال جامع هذا على بن ابي طالب رضى الله عنه كان يعلم أن رسول الله (ص) يربأ ببنى هاشم من ولاية الأعمال كما ثبت فى مسلم وغيره من حديث مالك عن ابي شهاب أن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب حدثه أن عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث حدثه.

قال: اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبدالمطلب فقالا والله لو بعثنا هذين الغلامين (قال لى وللفضل بن العباس) إلى رسول الله (ص) فكلماه فأمرهما على هذه الصدقات فأديا ما يؤدى الناس واصابا مما يصيب الناس.

قال فبيناهما فى ذلك جاء على بن أبى طالب رضى الله عنه فوقف عليهما فذكر له ذلك، فقال لا تفعلوا فوالله ما هو بضاعل فانتجاه ربيعة بن الحارث، فقال: والله ما تصنع هذا إلا نفاسة منك علينا فوالله لقد نلت صهر رسول الله (ص) فما نفسناه عليك.

قال على: أرسلوهما، فانطلقا واضطجع.

فلما صلى رسول الله (ص) الظهر سبقناه إلى الحجرة فقمنا عندها حتى جاء فأخذ بآذاننا ثم قال: أخرجنا ما تسران، ثم دخل ودخلنا عليه وهو يومئذ عند زينب بنت جحش.

قال: فتواكلنا الكلام، ثم تكلم احدنا، فقال: يا رسول الله أنت أبر الناس وأوصل الناس وقد بلغنا النكاح - أى الحلم - فجئنا لتؤمّرنا على بعض هذه الصدقات فنؤدى إليك كما يؤدى الناس، ونصيب كما يصيبون.

فسكت طويلاً حتى اردنا أن نكلمه وجعلت زينب تلمع إلينا من وراء الحجاب أن لا تكلماه.

قال ثم قال إن الصدقة لا تنبغى لآل محمد إنما هى أوساخ الناس ادعوا إلى محمية وكان على الخمس ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب فجاء، فقال لمحمية أنكح هذا الغلام ابنتك للفضل بن العباس فأنكحه.

وقال لنوفل بن الحارث أنكح هذا الغلام ابنتك لى فانكحنى.

وقال لمحمية اصدق عنهما من الخمس كذا وكذا.

فهذا اعزك الله وإن كان إنما فيه منع بنى هاشم من تناول الصدقة لأنها محرمة عليهم فإن رسول الله (ص) إنما كانت أعماله التي يستعمل عليها عماله على قسمين: إما للحرب أو على الصدقات فمنع رسول الله (ص) بنى هاشم من العمل على الصدقة بنصيب العامل وهو الصحيح أنهم لا يستعملون عليها تنزيهاً لهم ولبنى المطلب عن أوساخ الناس لكرامتهم.

وقد كان غير واحد من فضلاء الصحابة رضى الله عنهم يعلمون أن آل البيت أرفع قدرًا عند الله من أن يبتليهم بأعمال الدنيا منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب لما خرج الحسين بن علي رضى الله عنهما يريد العراق وقد كتبت إليه شيعته وحثوه على مسيره إليهم ليقوم بأمر الأمة بدل يزيد بن معاوية لحقه عبد الله على مسيرة ليلتين، وقال: أين تريد؟

قال: العراق.

قال لا تأتهم.

قال: هذه كتبهم وبيعهم.

فقال إن الله عز وجل خير نبيه (ص) بين الآخرة والدنيا فاختر الآخرة ولم يرد الدنيا وإنك بضعة من رسول الله (ص) والله لا يليها أحد منكم وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم فارجع.

فأبى الحسين وقال هذه كتبهم وبيعهم.

فأعتنقه عبد الله بن عمر وقال استودعك الله من قتيل فكان كما قال ابن عمر (٥٩).

(٥٩) مثل هذه الرواية المشهورة في كتب التاريخ تريد التأكيد على أن الحسين خرج طلباً للحكم والإمارة ولم يكن الأمر كذلك فما قام به الحسين هو ثورة كان الهدف منها إعادة الصورة الحقيقية للإسلام وتثبيته على ساحة الواقع بعد أن شوهه معاوية وولده وعزلوه عن الواقع وعزلوا المسلمين عنه. انظر الملحق.

وكذلك قال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما للحسين، والله يا ابن أخى ما كان الله ليجمع لكم بين النبوة والخلافة وهذا من فقههما.

وقد أشار الحسن بن على رضى الله عنهما إلى ذلك فى خطبته لما ترك الخلافة التى صارت إليه بعد أبيه وتنزه عنها وترفع عن منازعة معاوية فلما دخل معاوية الكوفة أشار عليه عمرو بن العاصى أن يأمر الحسن فيخطب الناس فلما منه أنه يعيا فخطب معاوية، ثم أشار إلى الحسن أن يخطب فقام فحمد الله.

ثم قال: (أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وإن لهذا الأمر مدة والدنيا دول وإن الله عز وجل قال لنبيه (ص) «وَأِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» [الأنبياء: ١١١] فلما قالها قال معاوية اجلس وحقدها على عمرو، وقال: هذا من رأيك فصدق الحسن فيما قاله.

﴿فصل فى خروج الخلافة﴾

ذهب بعضهم إلى أن السر فى خروج الخلافة بعد رسول الله (ص) عن على بن أبى طالب إلى أبى بكر وعمر ثم عثمان أن علياً لو ولى الخلافة حينئذ وهو أبو الحسنين لأوشك أن يقول قائل ويتخيل متخيل أنه ملك متوارث لا يكون إلا فى أهل البيت كما تزعمه الرافضة فسان الله العقائد من هذه الشبهة كما صانها من شبهة قول القائل عن النبى (ص) هو رجل يطلب ملك أبيه وهو معنى حسن ولهذا السر جعل (ص) الخلافة لعامة قريش ولم يختص بها أهل بيته بل ولا بنى هاشم حتى لا يتخيل أنه ملك متوارث والله أعلم^(٦٠).

(٦٠) انظر التعليق على هذا الكلام فى الملحق.

وقد ظهر لى أن ولاية رسول الله (ص) بنى أمية الأعمال كانت إشارة منه (ص) إلى أن الأمر سيصير إليهم ولى بحمد الله فى هذا النحو خير سلف وأجل قدوة منهم سعيد بن المسيب رحمه الله.

قد ثبت فى البخارى ومسلم من حديث أبى موسى الأشعرى فى حديث جلوس رسول الله (ص) على بئر اريس ودخول أبى بكر وعمر وجلوسهما عن يمينه وشماله معه (ص) فى القب ودخول عثمان بن عفان وجلوسه تجاههم من الشق الآخر وأن سعيد بن المسيب قال فتأولت ذلك قبورهم اجتمعت ها هنا وانفرد قبر عثمان، وثبت من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله (ص) نحر فى حجته التى يقال لها حجة الوداع ثلاثا وستين بدنة فكان فى نحره هذا العدد من البدن إشارة إلى أن مدة حياته (ص) ثلاث وستون سنة.

وثبت من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله قال: إن امن الناس على فى صحبته وماله وأبو بكر ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا إلا خلة الإسلام لا تبقيين فى المسجد خوخة إلا خوخة أبى بكر^(٦١).

فكان امر رسول الله (ص) بإبقاء خوخة أبى بكر رضى الله عنه فى المسجد مع منع الناس كلهم من ذلك إشارة ودليل على خلافته بعد رسول الله (ص) وأن ذلك من رسول الله (ص) تنبيهًا للناس بأن أبا بكر يصير إمام المسلمين ويخرج من بيته إلى المسجد كما كان رسول الله (ص) يخرج.

(٦١) انظر البخارى ومسلم باب فضل أبى بكر. وحديث خوخة أبو بكر مردود بأحاديث أخرى لصالح خوخة على. انظر الترمذى كتاب المناقب ومجمع الزوائد للهيثمى ج ٩/ ١١٤ ومسند احمد.

ذكره ابن بطلال وقد جعل جمهور الصحابة استخلاف رسول الله (ص) أبا بكر في الصلاة وهو مريض دليلاً وإشارة إلى أنه الخليفة من بعد رسول الله (ص)، وقالوا: قد رضى رسول الله (ص) لديننا، أفلا نرضاه لدينانا^(٦٢)؟

وثبت في الصحيح من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كان عمر يدخلني مع اشيخ بدر، فقال بعضهم لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله، فقال إنه ممن قد علمتهم.

قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني.

فقال: ماتقولون في «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا» حتى ختم السورة، فقال بعضهم امرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وقال بعضهم لا ندرى أو لم يقل شيئاً.

فقال لى يا ابن عباس أكذا هو؟

قلت: لا.

قال: فما تقول؟

قلت: هو أجل رسول الله (ص) اعلمه الله له يقول إذا جاء نصر الله والفتح، فتح مكة فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره أنه كان تواباً.

قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم، فهذا فهم الصحابة والتابعين وهم القدوة وبهم الأسوة. وفقنا الله لاتباعهم.

(٦٢) هذا الكلام من استنتاجات بعض الفقهاء والمؤرخين وليس محل إجماع.

﴿فصل فى بنى العباس﴾

إياك والاعتراض على ما تقدم بأخذ بنى العباس بن عبدالمطلب بن هاشم الخلافة وأنهم أقاموا خلفاء نيّفاً على خمسمائة وعشرين سنة فإن الخلافة إنما صارت إليهم بعدما ضعف أمر الدين وتخلّخت أركانه وتداول الناس أمر الأمة بالغلبة فأخذها حينئذ بنو العباس بأيدي عجم أهل خراسان ونالوها بالقوة ومناهضة الدول ومشاورة الملوك حتى أزالوا بعجم خراسان دولة بنى أمية وتناولوا العز كيف كان فما وصل أمر الأمة إلى أهل العدالة والظّهارة ولا وليهم ذوو الزهادة والعبادة ولا ساسهم أرباب الورع والأمانة بل استحالَت الخلافة كسروية وقيصرية بحيث أن إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبدالله بن عباس لما وجه أبا مسلم الخراساني إلى دعائه بخراسان ووصاهم أن يسمعوا له ويطيعوا، قال له أنك رجل منا أهل البيت احفظ وصيتي انظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم واسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتم الأمر إلا بهم واتهم ربيعة فى أمرهم وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمة فاقتله^(٦٣).

فأين اعزك الله هذه الوصية من وصايا الخلفاء الراشدين لعمالهم.

وتأله لو توجه أبو مسلم إلى أرض الحرب ليغزو أهل الشرك بالله لما جاز أن يوصى بهذا، فكيف وإنما توجه إلى دار الإسلام وقتال أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم من العرب لينتزع من أيديهم ما فتحه آباؤهم من أرض الشرك ليتخذ مال الله دولا وعبيده خولا فعمل أبو مسلم بوصية إبراهيم الإمام حتى غلب على ممالك خراسان وتخطت عساكره إلى العراق فيقال إنه قتل ستمائة ألف إنسان وسار فى الناس بالعسف والجبرية.

(٦٣) انظر هذه الوصية فى تاريخ اليعقوبى ج ٢/ ٢٦٢. وانظر حوادث عام ١٢٩هـ وما بعدها فى كتب التاريخ.

فمن سىء سيرته إنه لما قوى أمره وصار فى عسكر ودخل مرو فى شهر ربيع الأول سنة ثلاثين ومائة واستولى عليها اراد الغدر بنصر بن سيار وقد آنسه وبسطه وضمن له ان يكف عنه ويقوم بشأنه عند الإمام.

فبعث مع لاهز بن قريط وسليمان بن كثير وعمران بن إسماعيل وداود بن كراز يعلمه ان كتابا آتاه من الإمام يعده فيه ويمنيه ويضمن له الكرامة ويقول له انى أريد مشافهته، وقرأ كتاب الإمام عليه، يريد بذلك انه إذا آتاه قبض عليه.

فلما اتته الرسل تلا لاهز قول الله تعالى: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَمَرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُونَكَ» [القصص: ٢٠].

فتنبه نصر على ما أراد من تحذيره، فقال: انا صائر معكم إلى الأمير أبى مسلم، ودخل بستائنا له كأنه يريد أن يلبس ثبابه ويركب دابته وهرب إلى الرى.

وسأل ابو مسلم عنه فأخبر بتلاوة لاهز الآية، فقال له: يا لاهز اعصيته فى الدين؟ قوما فاضريا عنقه، فضربت عنق لاهز.

وكان سليمان بن كثير الخزاعى أحد نقباء الدعوة فقتله أبو مسلم، لأنه كره سيرته واخذ عنقود عنب، فقال اللهم سود وجه أبى مسلم كما سودت هذا العنقود واسقنى دمه.

قال ايضاً: حفرنا نهراً بأيدينا، فجاء غيرنا فأجرى فيه الماء - يعنى أبى مسلم - .

وقتل زياد بن صالح من أجل انه بلغه عنه انه يقول إنما بايعنا على إقامة العدل وإحياء السنن، وهذا جائر ظالم يسير بسير الجبابة وإنه مخالف.

وكان لزياد بلاء حسن في إقامة الدولة فلم يرع له، فغضب عيسى بن ماهان مولى خزاعة لقتل زياد ودعا لحرب أبي مسلم سرا، فاحتال عليه بأن دس إلى بعض ثقاته بقتله فكتب إليه أن رسول أمير المؤمنين - يعني السفاح - قد قدم على الأمير بخلع وبر له وللأولياء فصر إلينا لتشاركنا في امرنا.

فقدم عليه فأخذه وأدخله جوالق وضربه بالخشب حتى قتل.

وكان افلح بن مالك بن اسماء بن خارجة الفزاري بخراسان وكان صديقا لأبي مسلم يلاعبه الشطرنج ويؤانسه وكان ذا قدر بخراسان فلما ظهرت الدعوة قدم على أبي مسلم وقال:

قل للأمير أمين الإمام وصى وصى وصى وصى
أتيتك لا طالباً حاجة ومالي في أرضكم من كفى

فكان أبو مسلم يبره ويكرمه، ثم أمر بقتله فقبل له صديقك وانيسك، فقال: رأيته ذا همة وابهة فقتلته مخافة أن يحدث حدثا وكان لا يقعد على الأرض إذا قعدت على السرير ولقد كان على كريما وكنت له محبا.

فغير أبو جعفر المنصور أبا مسلم بقتله فيما عيره له لما عزم على قتله.

وكان أبو مسلم يخدم يونس بن عاصم فابتاعه منه بكير بن ماهان بأربعمائة درهم وبعث به إلى إبراهيم الإمام فلما ملك أبو مسلم مرو قدم عليه يونس بن عاصم فأكرمه غاية الإكرام. ثم دس إليه رجلا، فقال: سله عن حاله عندي ولم أكرمته؟ فسأله.

فقال: كنت قهرماناً له ناصحاً.
فقال له أبو مسلم: أبيت إلا كرمًا.
فقال: يا ابن اللخناء أردت أن أقول إنك كنت لى خادماً فتقتلنى، فبالله أسألك لو
لم أقلب المعنى ماكنت فاعلاً؟
قال: قد كنت قدرت موضع خشبتك.
قال: أكان هذا جزائي؟
قال: ومن جازيناه بجزائه؟ وضعت سيفى فلم يبق بر ولا فاجر إلا قتلته^(٦٤).

ومثل هذا كثير ومازال يسعى بجهدده حتى أزال دولة بنى أمية، وأقيم عبيدالله بن
محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الملقب بالسفاح فبعث عمه عبدالله بن علي لقتال
مروان بن محمد فقتله وبطش فى اهل الشام بطش الجبارين وسار من الجور سيرة لم
يسرها أحد قبله.

وذلك أنه لما هزم مروان بالزاب وغلب على بلاد الشام وقتل أهل دمشق وهدم
سورها وسار إلى فلسطين نادى وهو على نهر ابن فطرس فى بنى أمية بالأمان
فاجتمعوا إليه فعجلت الخراسانية إليهم بالعمد فقتلوهم.

وقتل عبدالله جماعة منهم ومن أشياعهم.
وامر بنبش قبر معاوية بن أبى سفيان فما وجد منه إلا خط ونبش قبر يزيد بن
معاوية فوجد منه سلاميات رجله ووجد من عبدالملك بن مروان بعض شؤون رأسه ولم
يوجد من الوليد وسليمان ابني عبدالملك إلا رفات ووجد هشام صحيحاً إلا شيئاً من
أنفه وشيئاً من صدغه فضرب عدة سياط وصلب ووجدت جمجمة مسلمة بن عبدالملك

(٦٤) انظر سيرة أبو مسلم الخراساني فى كتب التاريخ. بداية من عام ١٢٩هـ وحتى مقتله عام ١٣٧هـ.

فاتخذت غرضاً حتى تناثرت.

ولم يعرض لعمر بن عبدالعزيز وجمع ما وجد فى القبور وأحرق.

وخطب عبدة بنت عبدالله بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، زوج هشام بن عبد الملك بن مروان فأبت عليه التزويج فأمر بها فبقرت بطنها وجعلت حين أتى بها ليبقر بطنها وتقتل تنشد:

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

فهذه سيرة عبدالله بن على، وولى السفاح ابن أخيه إبراهيم بن يحيى بن محمد ابن على بن عبدالله سنة ثلاث وثلاثين ومائة الموصل فدخلها فى اثنى عشر ألفاً فأول ما بدا به أن دعا أهل الموصل فقتل منهم اثنى عشر رجلاً فنصر أهل البلد وحملوا السلاح فنادى من دخل الجامع فهو آمن فأتاه الناس يهرعون إليه فأقام الرجال على أبواب الجامع وقتل الناس فيه قتلاً ذريعاً تجاوز فيه الحد وأسرف فى المقدار.

فيقال أنه قتل أحد عشر ألف إنسان ممن له خاتم سوى من ليس فى يده خاتم وهم عدد كثير جداً بحيث لم ينج من رجال الموصل مع كثرتهم إلا نحو أربعمئة رجل صدموا الجند فأفرجوا لهم.

فلما كان الليل سمع صراخ النساء اللاتى قتل رجالهن فأمر من الغد يقتلن، فأقام رجاله ثلاثة أيام يقتلون النساء والصبيان.

وكان فى عسكره قائد معه أربعة آلاف عبد زنجى، فأخذوا النساء قهراً.

فلما فرغ إبراهيم من قتل الناس فى اليوم الثالث ركب فى اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف المسلولة فأخذت امرأة بلجام دابته فأراد أصحابه قتلها فكفهم عنها، فقالت له: الست من بنى هاشم، الست ابن عم رسول الله؟ أما تأنف للعرييات المسلمات أن ينكحهن الزنوج؟

فلم يجبها وبعث معها من بلغها مأمنها.

ثم جمع من الغد الزنوج للعطاء وقتلهم عن آخرهم، ثم أمر بأن لا يترك فى الموصل ديك إلا ذبح ولا كلب إلا عقر، فنفذ ذلك.

فكانت هذه الفعلة لم نسمع بأقبح منها إلا ماكان من السفاح فإن زوجته أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبدالله بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم المخزومية قالت به: يا امير المؤمنين لأى شىء استعرض ابن أخيك أهل الموصل بالسيوف؟

فقال لها وحياتك ما أدرى؟

ولم يكن عنده من انكار هذا الأمر الفظييع سوى هذا.

ولعمري لقد فاق فرعون فى فسادة وأربى عليه فى عتوه وعناده، وأن السفاح بما فعله ابن أخيه قد صار يسوم أمة محمد (ص) من سوء العذاب أشد وأقبح ماكان فرعون يسوم بنى إسرائيل منه.

فكيف بها إذا ضمت مع ما حكاه البلاذرى. قال: كان أبو العباس - يعنى السفاح -

يسمع الغناء فإذا قال للمغنى أحسنت لم ينصرف من عنده إلا بجائزة وكسوة.

فقليل له أن الخلافة جليلة فلو حجت عنك من يشاهدك على النبذ فاحتجب عنهم.

وكانت صلاته قائمة لهم^(٦٥).

فأين هذا من الهدى النبوى وسير أئمة الهدى؟ فما أبعد عن هداهم، والله در القائل:

نزلوا بمكة فى قبائل نوفل ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وأما أبو جعفر عبد الله بن محمد المنصور فإنه تزيأ بزي الأكاسرة وجعل أبناء فارس رجالات دولتهم كبنى برمك وبنى نوبخت وأحدث تقبيل الأرض وتحجب عن الرعية وترفع عليهم بحيث أن عقال بن شبه قال له: أحمد الله فقد جزت مدى الخلفاء فغضب المنصور.

فقال: كبرت يا عقال وكبر كلامك، ففطن.

وقال: أجل لقد أحزن سهلى واضطرب عقلى وانكرنى أهلى ولا أقوم هذا المقام بعد يومى فلم يعيش المنصور بعد ذلك إلا شهرين وأياماً.

(٦٥) أنساب الأشراف. وانظر كتب التاريخ.

وحتى أن الربيع حاجبه ضرب رجلاً شمت المنصور عند العطسة، فلما شكاً ذلك إلى المنصور.

قال: أصاب الرجل السنة، وأخطأ الأدب.

فأين قول أبى جعفر هذا من حديث النبوة الناطقة والإمامة الصادقة، ووالله ما الأدب كله إلا فى السنة النبوية، فإنها هى الجامعة للأدب النبوى والأمر الألهى.

لكنه غلب على القوم الجبروت ودخلت النعرة فى آنافهم وظهرت الخنزوانية بينهم فسموا عوائد العجم أدباً وقدموها على السنة التى هى ثمرة النبوة فزادهم ذلك جفاء وقسوة حتى إن أبى جعفر كان ممن بايع محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ليلة تشاور بنو هاشم فيمن يعقدون له الإمامة، وذلك حين اضطربت أمور بنى أمية فلما أقيم أبو العباس عبدالله بن محمد السفاح فى الخلافة وعهد بها عند وفاته لأخيه أبى جعفر عبدالله بن محمد المنصور وقام من بعده بالأمر أهمه أمر محمد بن عبدالله وأخيه إبراهيم والح على أبيهما عبدالله بن الحسن أن يحضرهما إليه لما حج.

وكان قد شردهما خوف جوره ثم حبس عبدالله وعدة من بنى الحسن ومعهم الديباج بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخوهم لأُمهم فاطمة بنت أبى عبدالله الحسين بن على بن أبى طالب.

وجعل القيود والاغلال فى أرجلهم وأعناقهم وأركبهم محامل بغير وطاء وسار بهم

كذلك من المدينة النبوية وطنهم ووطن آبائهم حتى قدموا عليه وهو بالريذة فأمر بالديباج فشقت عنه ثيابه وضرب خمسين ومائة سوط فأصاب سوط منها وجهه.

فقال، ويحك اكفف عن وجهي فإن له حرمة برسول الله (ص).

فقال المنصور للجلاد: الرأس الرأس فضرب على رأسه نحواً من ثلاثين سوطاً. فأصابا إحدى عينيه سوط منها فسالت على خده ثم قتله.

ومضى بنى حسن إلى الكوفة فسجنهم بقصر بن هبيرة واحضر محمد بن إبراهيم بن حسن وأقامه، ثم بنى عليه اسطوانة وهو حى وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً. ثم قتل أكثر من معه من بنى حسن.

وكان إبراهيم الغمر بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فيمن حمل مصفداً بالحديد من المدينة إلى الأنبار، وكان يقول لأخوته عبد الله والحسن: اعوذ بالله من مناطيهم منايا تمنينا ذهاب سلطان بنى أمية واستبشرنا بسلطان بنى العباس ولم يكن قد انتهت بنا الحال إلى ما نحن عليه.

وقد قتل أبو جعفر أيضاً إسماعيل الديباج بن إبراهيم الغمر ومحمد بن إبراهيم، قيل دفنه حياً.

وكان لأبى القاسم الرسى بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج ضيعة بالمدينة يقال لها الرأس فلم يسمح له أبو جعفر بالمقام بها حتى طلبه، ففر إلى السند وقال،

لم يروه ما اراق البغى من دمنا فى كل ارض فلم يقصر من الطلب
وليس يشفى غليلا فى حشاء سوى ان لا يرى فوقها ابن لبنت نبى

وكتب صاحب السند إلى أبى جعفر أنه وجد فى خان بالمولتان^(٦٦) مكتوباً يقول:
القاسم بن إبراهيم طباطبا العلوى انتهيت إلى هذا الموضع بعد أن انتعلت الدم من
المشى، وقد قلت:

عسى منهل يصفو فتروى ظمئة اطلال صداها المشرب المتكدر
عسى جابر العظم الكسير بلطفه سيرتاح للعظم الكسير فيجبر
عسى صور امسى لها الجور حاقنا سيبعثها عدل بحى فتظهر
عسى الله لا تياس عن الله انه يستر منه ما يعز ويعسر

فكتب إليه: قد فهمت كتابك وانا وعلى واهله كما قيل:

نحاول اذلال العزيز لأنه بدانا بظلم واستمرت مرائره

واستحلف ربيعة امرأة ابنه محمد المهدي أن لا تفتح بيتا عرضه عليها إلا مع
المهدي بعد وفاته، ففتحته مع المهدي فإذا فيه من قتل من الطالبين وفى آذانهم رقاع
فيها أنسابهم، وفيهم اطفال فأمر المهدي فحضرت لهم حفرة ودفنوا فيها.

فأين هذا الجور والفساد من عدل الشريعة المحمدية وسيرة أئمة الهدى؟

(٦٦) بلدة من بلاد الهند.

واين هذه القسوة الشنيعة مع القرابة القريبة من النبوة؟

وتأله ما هذا من الدين فى شىء بل هو من باب قول الله سبحانه «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ» [محمد، ٢٢].

وكان أبو الجهم بن عطية مولى باهلة من اعظم الدعاة قدرا أو اعظمهم غناء وهو الذى أخرج أبا العباس السفاح من موضعه الذى أخفاه فيه أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وحرسه، وقام بأمره حتى بويع بالخلافة فكان أبو العباس يعرف له ذلك وكان أبو مسلم يثق به ويكاتبه، فلما استخلف أبو جعفر المنصور وجار فى احكامه.

قال أبو الجهم ما على هذا بايعناهم إنما بايعناهم على العدل.

فأسرها أبو جعفر فى نفسه، ودعاه ذات يوم فتغدى عنده، ثم سقاه شربة من سويق لوز، فلما وقعت فى جوفه هاج به وجع فتوهم أنه قد سم، فوثب.

فقال له المنصور: إلى أين يا أبا جهم؟

فقال: إلى حيث أرسلتنى؟

ومات بعد يوم أو يومين فقال:

احذر سويق اللوز لا تشربنه فشرّب سويق اللوز أرى أبا الجهم

وأما غدره بأبى مسلم فغير خاف على رواة الأخبار، وكان أشد ما يحقده عليه كتابه إليه: (أما بعد فإننى اتخذت أخاك إماما وكان فى قرابته برسول الله (ص) ومحلّه

من العلم على ماكان، ثم استخف بالقرآن وحرفه طمعاً في قليل من الدنيا قد نعاه الله لأهله ومثلت له ضلالتة على صورة العدل، فأمرني أن أجرد السيف وأخذ بالظنة ولا أقبل معذرة، وإن اسقم البريء، وأبرئ السقيم، وأتر أهل الدين في دينهم وأوطأني في غيركم من أهل بيتكم العشوة بالالفك والعدوان، ثم أن الله بحمده ونعمته استنقذني بالتوبة وكره إلى الحوبة، فإن يعف فقديمًا عرف ذلك منه، وأن يعاقب فبذنوبى وما الله بظلام للعبيد).

فكتب إليه أبو جعفر: قد فهمت كتابك وللمدل على أهل بيته بطاعته ونصرته ومحاماته وجميع بلائه مقال، ولم يرك الله في طاعتنا إلا ما تحب فراجع أحسن نيتك وعملك ولا يدعونك ما انكرته إلى التجنى فإن المغيظ ربما تعدى في القول فاخبر بما لا يعلم، والله ولى توفيقك وتسديدك فاقدم رحمك الله مبسوط اليد في امرناو محكمًا فيما هويت الحكم فيه ولا تشمت الأعداء بك وبنا إن شاء الله).

فقدم عليه وقتله^(٦٧).

فانظر اعزك الله إلى كتاب أبى مسلم يفصح لك عنه سيرة القوم ولن تجد أخبر بهم منه، ثم انظر إلى كتاب أبى جعفر جوابًا له، كيف لم ينكر عليه ما رماههم به ولا كذبه في دعواه ذلك يحقق عندك صدقه ولا يوحشئك هذا من أخبارهم بل ضمه إلى وصية إبراهيم الإمام تجدهما قد خرجا من آل واحد.

وكان عبد الله بن دادبه وهو المقفع قد كتب لعبد الله بن على أمانًا حين أجاب أبو جعفر إلى أمانة فكان فيه فإن عبد الله بن عبد الله أمير المؤمنين لم يف بما جعل

(٦٧) انظر قصة مصرع أبو مسلم الخراساني في كتب التاريخ أحداث عام ١٣٧هـ.

لعبدالله بن على فقد خلع نفسه والناس فى حل وسعة من نقض بيعته، فانكر أبو جعفر ذلك واكبره واشتد له غيظه على ابن المقفع، وكتب إلى أبى سفيان بن معاوية عامله على البصرة اكفى ابن المقفع.

ويقال أنه شافهه بذلك عند توديعه إياه فجاءه ابن المقفع يوماً فأدخله حجرة، ثم سجر له تنوراً فألقاه فيه وهو يصيح يا أعوان الظلمة وقيل أنهلقى فى بئر وأطبق عليه حجر وقيل ادخل حماماً فلم يزل فيه حتى مات، وقيل دقت عنقه وقطع عضواً عضواً، وألقيت أعضاؤه فى النار وهو يراه، ويصيح صياحاً شديداً.

وقيل ألقى فى بئر النورة فى الحمام وأطبق عليه صخرة فمات^(٦٨).

وشكا بنو على بن عبدالله ما صنع سفيان بابن المقفع إلى أبى جعفر المنصور، فأمر بحمل سفيان إليه، فلما جرى به وجاء عيسى بن على وغيره ليشهدوا عليه أن ابن المقفع دخل داره فلم يخرج وصرفت دوابه وغلماناه يصرخون وينعونه. وجاء عيسى بتاجرين يثبتون الشهادة على قتله.

فقال لهم المنصور: أرايتكم إن أخرجت ابن المقفع إليكم ماذا تقولون؟ فانكسروا عن الشهادة وكف عيسى عن الطلب بدم ابن المقفع.

وكان سديف بن ميمون مولى آل أبى لهب مائلاً إلى أبى جعفر، فلما استخلف وصله بألف دينار، ثم أنه اتصل بمحمد وإبراهيم ابنى عبدالله بن حسن حتى قتلا، فاختمى حتى آمنه عبدالصمد بن على والى المدينة، فلما قدمها أبو جعفر جد فى طلبه

(٦٨) انظر ترجمة عبدالمقفع صاحب كيلة ودمنة فى وفيات الأعيان: ج ١٥١/٢ هامش ترجمة الحلاج وانظر الكلمة والسيف للمعلق.

حتى ظفر به، فجعله فى جوالق وضرب حتى كسر، ثم رمى فى بئر وبه رمق حتى مات.

فهذا وأمثاله من سيرته خلاف سنن الهدى

وكان الفضل بن الربيع يمنع عائذ الخليفة أن يسأل عن شىء يقتضى جواباً ويقول اجعلوا عيادتكم دعاء فإذا أردت أن تقول كيف أصبح الأمير، فقل صبح الله الأمير بالكرامة.

وإن أردت السؤال عن حاله، فقل انزل الله على الأمير الشفاء والرحمة، فإن المسألة توجب الجواب.

وإن لم يجبك اشتد عليك، وإن أجابك اشتد عليه.

وكانت الخلفاء إذا عطست شمتت، فعطس هارون الرشيد فشتمته رجل، فقال له الفضل: لا تعد اتكلف أمير المؤمنين ردًا وجوابًا، فجزوا على ذلك فيما بعد.

وهذا المأمون عبد الله بن هارون الرشيد قد أثر فى الإسلام اقبح أثر وهو أنه عرّب كتب الفلسفة حتى كاد بها أهل الزيغ والالحاد الإسلام وأهله وحمل مع ذلك الناس كافة على القول بخلق القرآن وامتحنهم فيه أشد محنة وأكثر من شراء الأتراك وتغالى فى أثمانهم حتى كان يشتري المملوك منهم بمائتى ألف درهم^(٦٩).

(٦٩) انظر سيرة المأمون وفتنة خلق القرآن التى راح ضحيتها الحنابلة فى تاريخ الخلفاء للسيوطى وكتب التاريخ.

واقتردى به أخوه أبو إسحاق المعتصم فاشتد على الناس في امتحانهم بالقول
بخلق القرآن وانتهك أعراضهم وبرّح بالضرب الشديد أبشارهم.

وأخرج العرب قوم رسول الله (ص) الذين أقام الله بهم دين الإسلام من الديوان
واسقط عطاءهم، فسقط ولم يفرض لهم بعده عطاء.

وأقام بدلهم الأتراك، وخلع لباس العرب وزيههم، ولبس التاج وتزيا بزى العجم
الذين بعث الله نبيه محمد بقتلهم وقتالهم فزالته به وعلى يديه الدولة العربية وتحكم
منذ عهده وأيام دولته الأتراك الذين انذر الله بقتالهم فغلبوا من بعده على الممالك.

وسلطهم الله على ابنه جعفر المتوكل فقتلوه، ثم قتلوا ابن ابنه أحمد المستعين
وتلاعبوا بدين الله وتغلبوا على الأطراف كلها^(٧٠).

وفعل المتوكل جعفر بن المعتصم في خلافته من الانهماك في الترف المنهى عنه ما
يقبح مثله من آحاد الرعية.

وجهر بالسوء من القول في أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه حتى
قتله بيد أعوانه وأنصار دولته.

فقام من بعده ابنه محمد المنتصر فأتى بطامة لم يسمع في الجور نظيرها وهو
أنه كتب إلى الأفاق بأن لا يقبل علوى ضيعة ولا يركب فرسا إلى طرفة من الأطراف وأن
يمنعوا من اتخاذ العبيد، إلا العبد الواحد ومن كان بينه وبين أحد من الطالبين خصومة

من سائر الناس قبل قول خصمه فيه، ولم يطلب بينة وقرىء هذا الكتاب على منبر مصر.

فبإلله هل سمع فى اخبار الجائرين أهل العناد والشقاق بمثل ما أمر به هذا الجائر، لا جرم أن الله أخذه ولم يمهلَه فكانت دولته ستة أشهر^(٧١).

وما زالت أمور الإسلام تتلاشى والدولة تضعف، إلى أن انتقل الملك والدولة فى آخر أيام المتقى إبراهيم بن جعفر المقتدر، وأول أيام خلافة المستكفى عبدالله بن المكتفى من بنى العباس إلى بنى بويه الديلمى^(٧٢).

فلم يبق بيد بنى العباس من الخلافة إلا اسمها فقط من غير تصرف فى ملك بحيث صار الخليفة منهم فى مدة الدولة البويهية، ثم فى الدولة السلجوقية إنما هو كأنه رئيس الإسلام، لا أنه ملك ولا حاكم تتحكم فيه الديلم ثم السلجوقية كتحكم المالك فى مملوكه كما هو معروف فى كتب التاريخ.

وما زالت ضعفة بنى العباس مع الديلم ومع الاتراك منذ استولى معز الدولة أحمد بن بويه ببغداد فى جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة تحت الحكم إلى أن قتلوا عن آخرهم وسبى حريمهم وهدمت قصورهم وهلكت رعاياهم على يد عدو الله هولاء وكانوا هم السبب فى ذلك كما قد ذكر فى سيرة الناصر أحمد بن المستضىء.

(٧١) انظر المرجع السابق وكتب التاريخ.

(٧٢) من هذه الفترة قامت دولة البويهيين الشيعة وأصبح الخليفة العباس يأتهم بأمرهم. انظر تاريخ الخلفاء وتاريخ دول الإسلام للذهبي وأخبار البويهيين فى كتب التاريخ.

وقد ثبت فى الصحيح فى حديث معاوية أنه سمع رسول الله (ص) يقول: إن هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين^(٧٢).

وروى وكيع عن كامل أبى العلاء عن حبيب بن أبى ثابت عن عبيد الله بن عبد الله عتبة قال: قام رسول الله (ص) فقال: يامعشر قريش إن هذا الأمر لا يزال فيكم حتى تحدثوا أعمالا تخركم منه، فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شر خلقه، فالتحوكم كما يلتجئ القضيب وهو حديث مرسل وعبيد الله هذا هو ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود وأبو عبد الله الهذلى المدنى الأعمى، أحد الفقهاء السبعة، مات سنة تسع وتسعين.

﴿فصل فى اتفاق الخلافة الإسلامية مع الملة الموسوية﴾

وقد اتفق فى الخلافة الإسلامية كما اتفق فى الملة الموسوية حذو القذة بالقذة، وذلك أن العرب كلها ترجع إلى قحطان وعدنان، فيقال لسائر قحطان اليمن، ويقال لسائر بنى عدنان المضرية والنزارية، وهى قيس. والعرب كلها على ست طبقات شعوب وقبائل وعمائر وبطون وافخاذ وفصائل وما بينهما من الآباء يعرفها أهلها.

قال الله جلّت قدرته «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا» [الحجرات: ١٣] فالشعوب جمع شعب بفتح الشين وهو أكبر من القبيلة، وقيل الشعب هو الحى العظيم، مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج سموا بذلك لتعظيمهم واجتماعهم كتشعب اغصان الشجر.

وقيل الشعب القبيلة نفسها، وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لحتقر امر العرب شعوبى والقبائل جمع قبيلة.

(٧٢) انظر مسلم كتاب الإمارة والبخارى كتاب الأحكام.

والقبيلة من الناس بنو أب واحد وهى دون الشعب كبكر من ربعة، وتقيم من مضر.

وقيل القبيلة الجماعة التى تكون من واحد ويقال لكل جمع على شىء واحد قبيل.

قال تعالى: «إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ» [الأعراف: ٢٧].

واشتقت القبيلة من قبائل الشجر وهى أغصانها، وقيل أخذت من قبائل الرأس وهى أطباقها الأربع لأن العمائر تقابلت عليها والعمائر واحدها عمارة وهى اصغر من القبيلة، وقيل العمارة هى الحى العظيم الذى يقوم بنفسه.

والشعب يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطون واحدها بطن وهو دون القبيلة، وقيل دون الفخذ وفوق العمارة فالبطن يجمع الافخاذ، وفخذ الرجل حيه من أقرب عشيرته إليه، ثم الفخذ يجمع الفصائل، وفصيطة الرجل عشيرته ورهطه الادنون، وقيل الفصيطة أقرب آباء الرجل إليه، فكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصى بطن وهاشم فخذ، وبنو العباس فصيطة.

وكما أن الله جعل العرب شعوباً وقبائل فقد جعل بنى اسرائيل أسباطاً، فالسبط من بنى اسرائيل كالقبيلة من العرب وبنو العرب وبنو اسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل صلوات الله عليهم إثنا عشرة سبطاً، وهم يوسف النبى، وبنيامين، وكاد، ويهوذا، ونفتالى، وزبولون، وشمعون، وروبين، ويساخار، ولاوى، وذان، وياشر، فكل ولد من هؤلاء الأثنى عشر يقال له سبط، ومنهم كلهم سائر بنى اسرائيل.

فإذا عرفت ذلك فاعلم أن موسى صلوات الله عليه هو موسى بن عمران

ابن قاهت بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فهو من سبط لاوى، فلما مات لم يخلف فى إسرائيل أحد من سبط لاوى الذين هم قرابته القريبة وإنما خلفه يوشع وهو سبط افرائم بن يوسف وهو بعيد من سبط لاوى وذلك أنه يوشع بن نون بن يشماع بن عميهود بن لعدان بن تالح بن راشف بن بريعا بن افرائم بن يوسف النبى بن يعقوب عليهما السلام.

وهكذا وقع فى الإسلام، فإن رسول الله (ص) سيد بنى هاشم هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بلا خلاف فى ذلك، ولما توفى رسول الله (ص) لم يخلفه فى أمته أحد من بنى هاشم الذين هم أقرب العرب إليه.

بل خلفه (ص) أبو بكر وهو من بنى تيم بن مرة بن كعب، فإنه أبو بكر عبدالله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة.

فانظر كيف كان أبو بكر خليفة رسول الله (ص) فى البعد من جذم رسول الله (ص) كبعد يوشع من أصل موسى عليه السلام فإن أبا بكر إنما يلتقى مع رسول الله (ص) فى مرة بن كعب بن لؤى بعد عدة آباء، وكذلك يوشع إنما يلتقى مع موسى فى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام بعد عدة أيام.

وكما أنه قام بأمر بنى إسرائيل بعد يوشع خليفة موسى جماعة مختلفوا الأنساب بعضهم من سبط يهودا وبعضهم من سبط يساخر، وبعضهم من سبط بنيامين، وبعضهم من سبط منشا بن يوسف وبعضهم من سبط غاث وبعضهم من سبط دان.

كذلك قام بالخلافة بعد أبى بكر جماعة مختلفة أنسابهم.

بعضهم من بنى عدى وهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرظ بن رزاح بن عدى بن كعب.
وبعضهم من بنى أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى وهو عثمان بن عفان بن أبى العاص.

وبعضهم من بنى هاشم وهما على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى وابنه الحسن بن على بن أبى طالب.

وبعضهم من بنى أمية بن عبد شمس وهم معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية وابنه يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان.

وبعضهم من بنى أسد بن عدى بن عبد العزى بن قصى بن كلاب وهو عبد الله بن الزبير بن العوام بن أسد بن عبد العزى.

وبعضهم من بنى الحكم ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس وهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان وبنوه.

وكما أن بنى إسرائيل استقر أمرهم بعد من ذكرنا فى يهوذا كذلك استقرت الخلافة بعد من ذكرنا فى بنى العباس.

وكما أن يهوذا عم موسى عليه السلام، كذلك العباس بن عبد المطلب بن هاشم وهو عم رسول الله (ص).

وكما ان يهوذا قدمه يعقوب على اخوته وبشره ومدحه، كذلك العباس رضى الله عنه كان رسول الله (ص) يجله ويكرمه ويثنى عليه.

وكما ان امر بنى إسرائيل افترق فى دولة بنى يهوذا وصار بعد موت سليمان بن داود عليهما السلام فرقتين، فرقة بالقدس مع ابنه رجب بن سليمان وهم يهوذا وسبط بنيامين.

وفرقة بشمرون مع يريعام بن نباط وهم بقية الأسباط.

كذلك لما صارت الخلافة فى بنى العباس افترق امر الأمة فصار فى الانبار، ثم فى بغداد بنو العباس وفى الأندلس عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم وبنوه من بعده.

فلم تدخل الأندلس تحت طاعة بنى العباس، كما لم تدخل شمرون تحت حكم سبط يهوذا.

وكما ان مدينة القدس التى هى دار ملك بنى يهوذا كانت تدعى اورشليم ومعناه دار السلام، كذلك بغداد دار ملك بنى العباس كان يقال لها دار السلام.

وكما ان دولة يريعام من بعده بشمرون التى عرفت بنابلس إنقرضت قبل دولة بنى يهوذا بالقدس فإنها لم تقم غير مائتين واحد وستين سنة، فكذلك دولة بنى أمية بالأندلس فإنها انقرضت قبل انقراض دولة بنى العباس فكانت مدتهم مائتين وسبع وستين سنة.

وكما أن دولة بنى يهوذا بالقدس أقامت من عهد داود عليه السلام وهو أول من ملك منهم إلى أن انقرضت نحوًا من خمسمائة سنة فإنها أقامت أربع مائة وعشر سنين كذلك بنو العباس أقامت خلافتهم منذ أبى العباس عبد الله السفاح أول قائم منهم إلى أن انقرضت أيامهم خمسمائة وأربعًا وعشرين سنة.

وكما أن دولة بنى يهوذا انقرضت على يد بخت نصر فإنه سار إليهم من بلاد المشرق وقتلهم وهدم القدس دار ملكهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم، فكذلك زالت دولة بنى العباس على يد هولاء لما قدم إلى بغداد من بلاد المشرق فقتل الرجال وسبى النساء.

وكما أن أمر بنى إسرائيل لم يجتمع بعد زوال دولتهم لواحد يقوم بدينهم كذلك أمة محمد (ص) لم تجتمع بعد انقراض خلافة بنى العباس لواحد بل صار فى كل قطر ملك وكما عاد لبنى إسرائيل بعد إزالة بخت نصر دولتهم ملك كانوا فيه تحت يد اليونان وغيرهم مدة عمارة بيت المقدس بعد عودتهم من الجالية.

كذلك أقام الأتراك ملوك مصر رجلاً من بنى العباس جعلوه خليفة وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة^(٧٤).

وكما أن بنى إسرائيل قوم موسى عليه السلام قطعهم الله فى الأرض أمماً كذلك قريش قوم رسول الله (ص) تفرقوا فى أقطار الأرض وصاروا رعية ورعايا ليس لهم ملك ولا دولة.

(٧٤) المقصود بملوك مصر هنا حكام المماليك الذين استعانوا بأبناء العباسيين الفارين من وجه التتر كواجهة شرعية لهم ونصبوهم خلفاء بلا سلطة وكانوا أحياناً يقتلونهم. انظر سيرة هؤلاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى.

وكما أن أنساب بنى إسرائيل جهلت بأسرها إلا بعض بنى يهوذا فإن نسبهم يتصل بدادود عليه السلام، كذلك قريش جهلت فى هذه الأيام أنساب جميع بطونها إلا ماكان من بنى حسن وحسين فإن أنساب كثير منهم متصلة إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه.

فانظر أعزك الله كيف تشابه امر هذه الأمة المحمدية بأمر الأمة الموسوية، وقد انذر بذلك رسول الله (ص)، وكان هذا من أعلام نبوته كما بيئته فى كتاب «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع (ص).

. ثبت فى غير موضع من البخارى ومسلم وغيرهما من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ص): «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم) قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن؟ هذا لفظ مسلم، ولفظ البخارى لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، الحديث بمثله.

وفى لفظ له: لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلخوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن؟ ولبقى ابن مخلد من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة أن النبى (ص) قال لتتبعن سنن من كان قبلكم باعاً بباع وذراعاً بذراع وشبراً بشبر حتى لو دخلوا فى جحر ضب لدخلتم معهم، قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن، والله أعلم.

﴿تم وكمل بحمد الله وبعبونه صلى الله على سيدنا محمد﴾

﴿وآله وسلم تسليماً كثيراً آمين﴾

ملحق

فصل الحاكم فى النزاع والتخاصم

لحمد بن عقيل العلوى

١٢٧٩هـ / ١٣٥٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على خير خلقه سيدنا محمد وآله ومن تبعهم بإحسان.

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وصلاته وسلامه على سيدنا ومولانا محمد وآله الهداة، ومن اتبعه ووالاه، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله مستتباً علينا فتتبع الهوى.

أما بعد فقد قرأت كتاب (النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم) للحافظ العلامة أحمد بن على بن عبد القادر المقرئ رحمه الله، فرأيت فيه فوائد عديدة حسنة، وأدخل معها قليلاً من الوهم والغلط، فاستخرت الله عز وجل، واستعنت به، وتوكلت عليه، واستخلصت منه زبدة صالحة ممزوجة بزيادات صحيحة زدتها، ولم اتقيد بالفاظ المصنف فيما استخلصه من كتابه، وقد اتممت البحث بتبيين الصواب، وكشف النقاب عن الوهم والغلط، الذى راج على المصنف رحمه الله تعالى.

واسأل الله الكريم أن يجعل صنيعى خالصاً لوجهه، وأن ينفعنى به، وينفع به صالحى عباده إنه الجواد الرحيم.

وقد سميت (فصل الحاكم فى النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم).

ذكر المصنف رحمه الله بعد ديباجة كتابه أنه يكثر تعجبه من تطاول بنى أمية إلى الخلافة مع بعدهم من جذم رسول الله (ص) فأين بنو أمية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله (ص) ولعينه من التحدث بالخلافة سيما مع ما كانوا عليه، فإن العداوة

والمباينة الشديدة بين بنى أمية وبنى هاشم كانت فى الجاهلية، ثابتة، ثم ازدادت شدة ورسوخا فى الإسلام لمبالغة بنى أمية فى عداوة النبى (ص) وعداوة المسلمين، واذيتهم، وجدهم واجتهادهم فى استئصال شأفتهم، واستمرارهم على ذلك إلى أن قهروا والجبوا إلى الإسلام كرهاً يوم الفتح.

ولم يزل فيهم بعد ذلك من يضمّر العداوة للإسلام وأهله، ويعرف بذلك، فالعمري لا بعد أبعد مما بين بنى أمية، والخلافة، إذ لا سبب ولا نسب لهم يمتون به إليها ما سوى القرشية التى يستوى معهم فيها قريش الخثواهر.

فذو القرابة القريبة غيرهم، والوصية إلى سواهم، والناصرين للإسلام ولنبيه أعداؤهم، والسابقون إليه مقاتلوهم.

فليسوا فى قليل ولا كثير ما يدلى به إلى الخلافة من دين أو علم به، أو نصر له، أو قرابة قريبة غير مجذوذة إلى صاحبه، أو وراثة، وكل هذا مجمع عليه، ولا نزاع فيه بين المسلمين.

وحيث قد بعد القوم كل البعد عن كل مؤهل للخلافة، فليتهم سلموا مما يبعدهم أشد البعد عنها، ولكنه قد اجتمع فيهم من ذلك ما يعسر عده.

فعداوة كبيرهم أبى سفيان بن حرب لرسول الله (ص) ومحاربتة له وإجلابه عليه، وغزوه إياه أشهر من أن ينكر، ولقد أسلم بعد ذلك كرها، فسلم ولم يكن خلاصه إلا بشفاعة العباس بن عبد المطلب، وقد طلب له حينئذ ما طلب.

فكانت المكافأة عن تلك اليد البيضاء محاربة على، وتسميم الحسن ابنه، وقتل

الحسين ومن معه من اولاد على، وقرابات النبي (ص) وحمل نسائهم وذرايرهم حواسر على الأقتاب، والكشف عن سواة على بن الحسين لما اشكل عليهم بلوغه، كما يصنع بأبناء المشركين، وقتل بسرير ارطاة وزير معاوية واميره ابني عبيد الله بن العباس طفلين صغيرين، فتدلته امهما، ورثتهما بشعرها السائر.

وقتله اولاد عقيل بن ابي طالب مع زعمهم انه كان قد اعانهم على حرب اخيه، فإن صدقوا فقد جزوه بما هم اهل، وإن كذبوا فما احراهم بالبهتان.

ومن عرف بنى امية لا يعجب مما صنعوا لأن مثلهم لا يكون منه إلا ما كان منهم، ولكن العجب كل العجب من صنيع الأمة معهم مع معرفتهم احوالهم وتراجم رجالهم.

فمنهم ابو احيحة سعيد بن العاص بن امية مات مشركا كان من اشد الناس عداوة وبغضا لرسول الله (ص)، ومنهم عقبة بن ابي معيط كان فاجرا فاحشا، خبيثا، وجد رسول الله (ص) ساجدا لله تعالى فوطأ عنقه الشريف وطأ شديدا، ووجده مرة اخرى فوضع عليه سلا جزور او شاة، وقد اسر ببدر، فأمر النبي (ص) عليا فقتله، فقال للنبي (ص): يا محمد من للصبيبة؟ قال: النار.

ومنهم الحكم بن ابي العاص لعين رسول الله (ص) وطريده كان مؤذيا لرسول الله وعارا في الإسلام، لم يحسن إسلامه بل كان يتطلع اخبار النبي (ص) بالمدينة، ثم يخبر بها الكفار، ومشى مرة خلف النبي (ص) وهو يتخلج بأنفه وفمه، ويتفكك ويتميل كأنه يحاكي النبي، فالتفت إليه النبي (ص) فرآه فقال له: كن كذلك، فما زال بقية عمره على ذلك.

وطرده النبي (ص) من المدينة، ولعنه وما ولد، وقال: ويل لأمتي مما في صلب هذا، وله أخبار سيئة كثيرة.

وقال فيه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يخاطب ابنه:

إن اللعين أباك فارم عظامه
إن ترم ترم مخلجاً مجنونا
يضحي خميص البطن من عمل التقى
ويضل من عمل الخيث بطينا

ومن أعداء النبي (ص) عتبة بن ربيعة عدو الله ورسوله، وهو جد معاوية، وقتله حمزة كافرًا ببدر، فلما قتل حمزة بأحد لآكت هند بنت عتبة كبده، واتخذت لها حلياً من آرابه، وأعطت حليها قاتله وحشياً، وقد استثنى النبي (ص) من الأمان العام يوم فتح مكة، وأمر بقتلها في من أمر بقتله، فأسلمت، وهى أم معاوية مبدل أحكام الإسلام، وهادم أركانه.

ومنهم الوليد بن عتبة قتله على ببدر كافرًا، وهو خال معاوية.

ومنهم شيبة بن ربيعة، وكان ممن يكيد لرسول الله (ص) ويؤذيه، وقتل ببدر كافرًا.

ومنهم أبو سفيان والد معاوية حامل راية عداوة الله ورسوله، وقائد الأحزاب،

واحد اكبر ائمة الكفر، واشدهم عداوة لله ولرسوله، وللمسلمين، واكثرهم اجتهاداً في محاربتة، وكيدة، واحرصهم على استئصال شافة الإسلام، ومحوه، وكان زندقياً في الجاهلية، ثم اسلم كرهاً إسلاماً مدخولاً، وخرج مع رسول الله (ص) في غزوة حنين، ومعه الأزام يستقسم بها، وسرّ بهزيمة المسلمين، ثم كان كهقاً للمنافقين، روى الحسن ان ابا سفيان دخل على عثمان حين ولى الخلافة فقال: ادراها كالكرة، واجعل اوتادها بنى امية، فإنما هو الملك، ولا أدري ما جنة ولا نار.

ومنهم معاوية بن المغيرة، وهو ممن مثل بحمزة بعد قتله، وقتله على وعمار كافراً بأمر من النبي (ص).

ومنهم حمالة الحطب عمة معاوية كانت تسب النبي (ص) وتؤذيه، وتضع الشوك في طريقه، وهلكت كافرة.

فجميع هؤلاء ككثير غيرهم من قرياتهم بذلوا جهدهم في عداوة الله ورسوله، وفي اذيتة، واذية المسلمين حتى الجأؤهم إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة فراراً من الاضطهاد والظلم والتعذيب، فاستولى الظالمون على رباغ ومخلفات المهاجرين وباعوها، وهموا بقتل النبي (ص) غير مرة فحفظه الله من مكرهم، وبالع كل منهم، وبذل كل جهده بنفسه وبماله وعشيرته في كيدة، ولما هاجر رسول الله (ص) إلى المدينة ونجاه الله من شرهم جعلوا لمن يقتله مائة بغير نادوا بذلك في اعلى مكة واسفلها حسداً للنبي (ص)، وحقداً عليه.

ففي هذه الطغمة كهف النفاق، والوزغ وابن الوزغ، وناقر ثنايا الحسين بالقضيب، وصبية النار، واكله الاكباد، وحمالة الحطب.

ومن مآثرهم من بعد الإشادة بلعن صنو النبی وسید المسلمین، وقتل فضلاء المهاجرین والأنصار والبدریین، وأصحاب الشجرة، ثم قتل الحسین بن النبی وریحاته، ووطء صدره وظهره الشریفین، بسنابک الخیل، وقتل زید بن علی، ثم نبشهم له من قبره، وصلبه بعد أن ألقوا رأسه الکریم فی عرصۃ الدار تطأه الأقدام، وتنقر دماغه الدجاج فقال الشاعر:

اطردوا الديك عن ذؤابة زید
طالما كان لاتطأه الدجاج

وقال شاعرهم مفتخرًا بفجورهم:

صلبنا لکم زیداً علی جذع نخلة
ولم نر مهدياً علی الجذع یصلب

ثم قتلوا ابنه یحیی بن زید، وسموا قاتله ثائر مروان، وناصر الدین، وضربوا علی ابن عبدالله بن العباس بالسیاط مرتین، وسمّموا أبا هاشم بن محمد بن علی، وقتلوا إبراهیم الإمام، ادخلوا رأسه فی جراب نورة إلى أن مات، وبالحرّة قتلوا عون بن عبدالله ابن جعفر.

وقد كان أعرق الناس فی الکفر وفی عداوة النبی (ص) عبدالمک بن مروان بن الحكم، ومن الغریب انه لم یمنعه ذلك عن أن یكون خلیفة، ووالد خلفائهم ایضاً، ومثل عبدالمک بعض قومه یعرف ذلك من عرفهم، فإن جد عبدالمک لأبيه الحكم بن أبی

العاص، وقد مرّ ذكره، وجده لأمه معاوية وابن المغيرة، ومرّ ذكره، وأبوه مروان فضض من لعنة الله، وهو الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون، هو وولده إلا الصالحين، وقليل ما هم كما صح بذلك الحديث، وهو من بنى أمية الشجرة الملعونة في القرآن، وهل يكون أمير المؤمنين إلا أولاهم بالإيمان، وأقدمهم فيه.

وقد حدا الحادي بهشام بن عبد الملك، وهو رجلهم فقال:

إن عليك أيها البختى
أكرم من تمشى به المطى

فقال: صدق قولك.

وقال مرة: والله لأشكون سليمان بن عبد الملك يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وكفى بهذا جهلاً.

وولى ابنه سعيداً حمصاً فبلغه زناه بنساء الناس، فقال به: يابن الخبيثة تزنى وانت ابن أمير المؤمنين! أفجر فجور قريش، اقتل هذا وخذ مال هذا.

وبنو أمية لهم أكبر سابقة من التهلك والفسوق، والوقاحة، فقد نافر أمية هاشماً فنفره هاشم، فخرج أمية إلى الشام، وأقام بها عشر سنين، وكان مضعوقاً وصاحب عهار، ونافر حرب بن أمية عبد المطلب إلى نضيل بن عبد العزى، فتعجب نفس من إقدام حرب على المنافرة، وقال له:

أبوك معاهر وأبوه عف
وذاد الفيل عن بلد حرام

وقد صنع أمية شيئاً لم يصنعه أحد من أهل الجاهلية، فقد نزل لابنه أبى عمرو في حياته عن زوجته، وزوجه بها فبنى بها أبو عمرو أمام أبيه، وكان المقيتون في الجاهلية الذين يتزوجون نساء آبائهم بعد موتهم، أما من يتزوج زوجة أبيه وهو حي على مرأى منه، فهذا لم يكن قط من غير أمية، ولله القائل:

عبد شمس قد اضمرت لبنى ها
شم حرباً يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى وابن هند
لعلى وللحسين يزيد

ولاشك ان الأمر كما قال الشاعر:

إن العداوة تلقاها وإن قدمت
كالعريسكن أحياء وينتشر

إن رسول الله (ص) قد أبعد بنى أمية عنه، وأخرجهم من قرابته، واختص بها بنى هاشم، وبنى المطلب صح بذلك الحديث من طرق، فلم يجعل (ص) القرابة النسبية وحدها قرابة معتبرة في أحكام دين الله تعالى مالم تقترن بها القرابة الدينية، فلم ينفعهم كونهم من بنى عبد مناف لعداوتهم في الدين، وخذلانهم وعنادهم بخلاف إخوانهم بنى عبدالمطلب بن عبد مناف، لمسألتهم له في الجاهلية، وإسراعهم في نصره وموالاته، فلقد وقوه بأنفسهم، حين تخلى عنه الناس أجمعون، ودخلوا معه الشعب واحتملوا مضض الخصار والخوف والجوع الشديد مؤمنهم وكافرهم، ما خلا أبو لهب

لعنه الله وابعده، وقد كان السابقون من المسلمين من غير أهل البيت إذ ذاك في أمن وخصب وراحة والله القائل:

وأرى القرابة لا تقرب قاطعاً

وأرى المردة أكبر الأسباب

فمن أغرب الغرائب اضطهاد الأمة وقهرها وقتلها من نصر نبيها (ص)، ونصح له ووقاه بروحه، وبذل في حبه كامل جده واجتهاده، وأوصى النبي (ص) الأمة به، وحرصها على حفظه، وتكريمه، والتمسك به، وضمن لها عدم الضلال إن امتثلت ما أمرت، واختصه النبي (ص) بامتيازات ذوى القربى، واستخلافها وترئيسها، وتأميرها، ونصرها من حارب نبيها، وكذبه ونابذه وكاده، وآذاه واجتهد في أن يقتله، وفي أن يهلك الإسلام ويمحوه، ومن حذر النبي (ص) الأمة منه، وأخرجه من قرابته، فلم يجعل له حظاً من سهم ذوى القربى، فكيف يستحق نصيباً في الخلافة من لم يستحق ذرة من المال، وكيف يقيم دين الله أعدى عدو لله ولرسوله.

وليت بنى أمية إذ أنزلتهم الأمة الإسلامية المنزلة التي لم يجعلها الله لهم، وملكتهم زمامها عدلوا وأصلحوا، وعملوا خيراً.

ولكنهم أفسدوا وفسقوا وجاروا، واستأثروا بأموال الأمة كلها، وأهلكوا عترة نبيها (ص) قتلاً وتشريداً وأهانوا أنصاره، وبدلوا الأحكام، حتى قرروا عند أهل الشام أنه لا قرابة لرسول الله (ص) يرثونه إلا بنى أمية، وقال نائبيهم الحجاج جهاًراً على المنبر، رسولك أفضل أم خليفتك، يعرض بأن عبد الملك بن مروان أفضل من رسول الله (ص).

وقام ابن شقّى في مجلس هشام بن عبد الملك فقال أمير المؤمنين خليفة الله، وهو أكرم على الله من رسوله فأنت خليفته ومحمد رسول الله.

وصرح اميرهم خالد بن عبدالله القسرى على منبر مكة بأن عبدالملك بن مروان افضل من خليل الرحمن (ص) كما نقل هذا ابن جرير.

وقال يوسف بن عمر عامل هشام بن عبدالملك في خطبته يوم الجمعة: إن أول من فتح على الناس باب الفتنة، وسفك الدماء على وصاحبه الزنجى، يعنى عمار بن ياسر.

وقد صحح الحاكم حديث على في قوله عز وجل ﴿واحلوا قومهم دار البوار﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فقد قطع الله دابرهم، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

وبعد ذكر المقرئى أكثر ما تقدمت الإشارة إليه أفاد أنه طالت حيرته، وتفكر في ذلك سنين عديدة، وذاكر به مشيخة ممن لقيهم، فلم يجد طول عمره غير رجلين أحدهما قد عراه ما عرا المقرئى من الحيرة، وثانيهما مقلد لا يزيد مذاكره على التهويل شيئاً.

أول الأوهام / ثم اتضح للمقرئى رحمه الله أن سبب طمع بنى أمية في الخلافة رغماً عما تقدمت الإشارة إليه من حالهم المنافى لها، وسبب منعها عن بنى هاشم، مع تحليهم بشروطها واستحقاقهم لها. هو أنه لما مات رسول الله كان عامله على مكة عتاب ابن اسيد الأموى، وأقره أبو بكر، وكان على صنعاء خالد بن سعيد بن العاص الأموى، وعلى البحرين أبان بن سعيد بن العاص الأموى، أو كان على البحرين العلاء بن الحضرمى، وهو حليفهم، وعلى تيماء وخيبر وتبوك، وفدك عمرو بن سعيد بن العاص الأموى، وعلى نجران أبو سفيان صخر بن حرب الأموى، وقيل: كان عليها أنصارى،

وقيل: إن ابنه يزيد كان ممن يجمع الصدقة، وكان على جرش حليف لبني أمية من الأزد.

وقال عمر بن عبدالعزيز: لما مات النبي (ص) كان من عماله أربعة رجال من بني أمية.

ثم ذكر المقريزي أن العمال على سائر النواحي كانوا من غير بني هاشم قال: فإذا كان النبي (ص) قد أسس لهم الأساس، وأظهر بني أمية للناس بتوليته لهم الأعمال، فكيف لا يقوى ظنهم، وينبسط رجاؤهم.

وكيف لا يقصر أمل بني هاشم، وقد ذكر البخاري عن الزهري أن العباس عم النبي وأكبر بني هاشم سناً، وعلياً أخا النبي يريد أحدهما أن يستعلم الآخر من النبي (ص) في أيام مرضه هل الأمر فيهم أم في غيرهم؟ فيأبى ذلك.

وذكر قول العباس لعلی: امدد يدك أبايك، فيقال: عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله، ويابيعك أهل بيتك، فإن مثل هذا الأمر لا يؤخر، وقول على للعباس: يرحمك الله ومن يطلب هذا الأمر غيرنا، أو معناه، هذا على اختلاف الروايات.

وسياتى بيان ما اختلفوا فيه من إصابتهم وجه الراى، وذكر أنها رويت مع ما ذكره أحاديث كثيرة، إن كانت صحيحة فلا سبيل إلى ردّها، وإن كانت مفتعلة فقد كانت داعية إلى الأمر الذى وقع النزاع فيه.

وأتبعها ببعض أحاديث الفتن التى فيها ذكر ملك بني أمية، وجبروتهم، وتخاذلهم مال الله دولا، وعباد الله خولا، ورؤيا النبي (ص) بنى الحكم، أو بنى العاص ينزون على المنبر نزو القردة فلم ير (ص) مستجمعا ضاحكا حتى توفى، وما فى معنى ما ذكر.

وأردفه بأن أبا بكر ولي عددًا من بني أمية، وحلفائهم، وكذلك فعل عمر، ولم يوليا أحدًا من بني هاشم.

والنتيجة أن هذا وما يشبهه هو الذي حدد أنياب بني أمية، وفتح أبوابهم، واترع كأسهم، وقتل أمرائهم، حتى لقد قام أبو سفيان بن حرب على قبر حمزة رضى الله عنه، فقال: رحمك الله أبا عمار، لقد قاتلتنا على امر صار إلينا.

وروى أن الأمر لما أفضى إلى عثمان بن عفان أتى أبو سفيان قبر حمزة فركله برجله، ثم قال: يا حمزة إن الأمر الذي تقاتلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم، وكنا أحق به من تيم وعدى.

الثاني، ثم ذكر المقرئ اختيار البيت بالفضلواختيار الله لهم الآخرة، وقال: كان غير واحد من فضلاء الصحابة رضى الله عنهم يعلمون أن آل البيت أرفع قدرًا عند الله من أن يبتليهم بأعمال الدنيا، منهم عبد الله بن عمر رضى الله عنه وذكر ما روى أنه قاله للحسين: والله لا يليها أحد منكم، وما صرفها الله عنكم إلا للذى هو خير لكم.

وروى أن ابن عباس قال للحسين: ما كان الله ليجمع لكم بين النبوة والخلافة، قال: وهذا من فقههما.

وذكر اختيار رسول الله (ص) أن يكون عبدًا على أن يكون ملكًا.

وذكر زعم بعضهم أن السر في خروج الخلافة من على إلى أبي بكر وعمر، لئلا يقال: ملك متوارث.

قال: وقد ظهر لى أن ولاية رسول الله (ص) بنى أمية الأعمال كانت إشارة منه (ص) إلى أن الأمر سيصير إليهم.

وذكر أن له فى مثل هذا التأويل سلقا، وهو ابن المسيب فى تأويله جلوس النبى (ص) مع أبى بكر وعمر فى قف البئر فى جانب، وجلوس عثمان منفردا مقابلهم بأن قبورهم تجتمع ثلاثة، وينفرد عثمان، ثم اطلال بذكر تشبثات لا يثبت شىء منها على المحك.

كذكره أن صيرورة الخلافة إلى بنى العباس إنما كانت أيام ضعف الدين لعدم استحقاقهم الخلافة، وذكر طرقا من فظائع جبابرتهم وفراعنة عمالهم عاملهم الله بعدله آمين.

وشرع بعد ذلك فى المقارنة بين ما كان فى الأمة الموسوية، وما صار مثله فى الأمة المحمدية حذو القذة بالقذة.

فذكر أنه خلف بعد موسى يوشع بن نون عليه السلام، وهو من سبط آخر، وبعده عن موسى كعبد أبى بكر عن النبى محمد (ص).

وخلف بعد يوشع جماعة مختلفة انسابهم، كما قام بعد أبى بكر رجال مختلفة انسابهم.

ثم استقر امر بنى إسرائيل فى بنى يهوذا عم موسى عليه السلام، وكذلك استقر امر المسلمين فى بنى العباس عم النبى محمد (ص)، وذكر امورا سلك فيها الآخرون سنن من قبلهم، إلى أن قال ما معناه: ولم يجتمع امر بنى إسرائيل بعد زوال دولتهم على

واحد يقوم بدينهم، فكذلك المسلمون لم يتفقوا على خليفة واحد بعد بنى العباس، اى اولهم.

وبنو اسرائيل قطعهم الله فى الأرض امما، وكذلك قريش تفرقوا وصاروا رعية.

وبنو اسرائيل جهلت انسابهم إلا بعض بنى يهوذا، فإن نسبهم يتصل بداود عليه السلام، وكذلك قريش جهلت انساب بطونها ما خلا بعض بنى حسن وحسين، فإن انسابهم متصلة بعلى.

فانظر اعزك الله كيف شابه امر هذه الأمة امر الأمة اليهودية، مصداقا لما انذر بها رسول الله (ص) فيما صح وثبت عنه، فكان ذلك من اعلام نبوته، كما بينته فى كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء و الأحوال والحفدة والمتاع.

عن أبى سعيد قال: قال رسول الله (ص): (لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن) اخرجاه فى مسلم والبخارى وله طرق.

الثالث: وقد انتهى ما اردنا استخلاصه من كلام المصنف رحمه الله ممزوجا بما زدناه عليه مما يقويه، ويوضحه ووفاء بما وعدنا به من تبیین ما دخل على المصنف من وهم وغلط، نقول: إن جميع ما ذكره المصنف فى بنى أمية من بعدهم عن رسول الله وعن ولايته، وولاية المؤمنين، ومن إخراجهم (ص) لهم من قرابته إقصاء لهم، وطردا، ومن اتصافهم بعدواة الله ورسوله والإسلام وأهله، وبالإلحاد والزندقة، والنفاق والندالة، والعهار والدياثة، والخيانة، ومن مجازاتهم بالإساءة كل من احسن إليهم، ومن جبروتهم وظلمهم وعسفهم، وجشعهم وطمعهم، كل ذلك ثابت واقع لا شك فيه ولا مرية.

وكله مما يوجب على المسلمين إبعادهم وكبهم والاحتباس الشديد منهم، والحذر من سموم ضلالهم، وعدم الركون إليهم، وكله مما يوضح أن النزاع إنما كان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وما أحسن ما أتى به من المقارنة والتنظير بين ما وقع من الأمة اليهودية، وتبعهم فيه من تبعهم من الأمة المحمدية، حذو النعل، وما كان أخرى الأمة بتجنب تلك المهاوى بعد إنذار نبيها لها، وإرشاده لها إلى ما فيه ضمان هداها.

فإننا لا نشك في ضلال اليهود، وفي أن الله غضب عليهم، لمخالفتهم أوامر ربهم، ولولا ذلك لما حذرنا نبينا (ص) من اتباع سننهم، وأنذرنا رحمة منه بنا وإتماما للحجة علينا، ولذلك نقطع بضلال من نبذ التمسك بأهل بيت رسول الله واتبع سنن بنى إسرائيل.

ولا يلزم من كلامنا هذا الحكم بضلال جميع الأمة، كلا كيف لا، وقد صح عن النبي (ص) أن ربه اللطيف الخبير أنبأه - وله الحمد والمنة - أن أهل بيته، وكتاب الله لن يفترقا إلى ورود الحوض، فهم ومن تمسك بهم أهل الحق، وهم الفرقة الناجية، وهم الطائفة التي لا تزال على الحق لا يضرها من ناواها.

وبما تقرر مما ساق أكثره المصنف تتم الحجة في فصل الحكم فيما فيه النزاع، ويمتاز أهل الحق من المتبعين سنن من قبلهم.

ومن العجائب إتيان المصنف به وعدم فهمه له مع وضوحه وظهوره، والسبب في اشتباه الأمر عليه حتى كثر تحيره، ومذاكرته مشيخته طول عمره به - فيما نرى والله أعلم - هو إن شاء الله ما جرت به العادة غالباً من نشأة الإنسان على ما عليه أهل شارعه وبلده وقومه وإعظامه لمن يعظمونهم، واعتقاده أنهم أهل الحق، وأن مخالفتهم ضلال.

فينتحل التأويلات لكل ما يتراءى له من واضع خطائهم وأوهامهم، هكذا جرت

العادة، ولهذا كذبت الأمم رسلها، واستكبرت وكبر عليها أن يكون الخطأ حليف من ارتكز تعظيمه في قلوبهم، وهذا حجاب عن معرفة الحق، قل من خرقة إلا من وفقه الله وأعانته.

إن المصنف - وأمثاله كثير - لما بهره سطوع نور الحق، وظهر له ضلال من ضل تحير، ولم يصدق عقله، ولم يقنع بقواطع الحجج، بل استرسل مع الأوهام، وذهب يغالط نفسه، ويحاول ستر شمس الحق بخيوط من نسيج العنكب متتبعا للوساوس والخيالات الواهية.

وإذا تأمل الموفق المنصف صنيع كثير من العلماء في أمثال هذه المواضع مما تعصبوا له وجمدوا عليه، وأشريته قلوبهم، وارتضعوه مع اللبن، وربوا عليه يجدهم يتشبثون بأذيال الأوهام هيبة للإنفراد عن الجماهير، ونضالا عن آراء كبار مقلديهم وإعظاما لمقام سابقهم، وتخوفا من أن ينبزوا بالقاب مكروهة عند العامة، كالرفض مثلا، وحذرا من أن تعوى خلفهم كلاب الطواغيت من سفلة العلماء فيتعمدوا إطفاء نور الفرة، وإغماض عين البصيرة، وطمس معالم الهدى، وتخدير الضمائر بنحو قولهم: كذا قالوا، ولو لم يكن لهم مستند لما قالوا، وكقولهم: يسعنا ما وسعهم، وهم أعلم منا وأروع، وداعى الإنصاف يناديهم بلسان الحق المبين «هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» [آين السورة].

والحق أن الذين هم أعلم وأروع هم من قال النبي (ص) فيهم (تعلموا منهم ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم) وهم الذين ضمن عدم الضلال للمتمسك بهم الذين من تقدمهم هلك، ومن تأخر عنهم هلك، ومن خالفهم ملك، وصار حزب إبليس.

الرابع: زعم المصنف رحمه الله تعالى أن الأمر اضتح له لنظره في أمور هي أن

رسول الله (ص) لما توفاه الله تعالى كان رجال من بنى أمية وحلفائهم عمالا له، ولم يكن أحد من قرابته (ص) إذ ذاك عاملا.

وبنى المصنف على هذا قوله، فإذا كان رسول الله (ص) قد أسس لهم هذا الأساس، وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليته لهم الأعمال. الخ.

فقد جعل المصنف تأسيس دولة بنى أمية مبنيا على هذه الشبهة الواهية، مقويا لها بما رواه البخارى عن الزهرى من إشارة العباس على بنى أمية بسؤال النبى عن الخلافة. الخ.

مؤيدا ذلك برواية البخارى أيضا قول العباس لعلى: امدد يدك.. الخ وجواب على عليه.

داعما جميع دعاويه بأحاديث الفتن التى حذر النبى (ص) أمته فيها جبروت بنى أمية، واستبدادهم وطمغيانهم لئلا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم من الأمم، وليعتصموا بحبل الله وعترته نبيه.

ثم اتبع ما أشرنا إليه بما صنعه أبو بكر وعمر من توليتها جلائل الأعمال رجال بنى أمية، وعدم توليتها أحدا من أهل بيت رسول الله (ص)، وقد جعل ما ذكره ترشيحا لبنى أمية، وتطريقا لهم إلى الخلافة، وحملا لهم على أعناق الأمة، وإقصاء لبنى هاشم، وإبعادا لهم عن ما هم أحق خلق الله به، وسدا لباب الخلافة عنهم.. الخ الخ.

والصواب إن شاء الله تعالى أنه قد كان ممن ولاه النبى (ص) جمع شياها الصدقة وبعرائها، وما أشبه ذلك رجال من بنى أمية يعدون على أصابع اليد على نحو ما نقله

المصنف عن عمر بن عبد العزيز، وسنبين لك فيما سيأتى ما هو مقصود تلك الولاية من النبى (ص) - لا من غيره لاختلاف المعنى والصورة - وبه تعرف جلياً أنها مما لا قيمة له فيما تخيله المصنف.

وما قد يفهمه قول المصنف أنه لم يكن فى عمال النبى (ص) أحد من بنى هاشم من أن النبى (ص) لم يول أحداً منهم ليس بمراد قطعاً، لأن النبى (ص) ولى علياً النداء ببراءة بعد أن كان أعطاها أبا بكر، فأمر علياً أن يأخذها منه وقال له: (لا يؤدي عنى إلا أنا أو انت) رواه أحمد.

فأى ولاية تساوى ذرة من هذا الشرف، وما علينا من تمحلات من ديدنهم تصغير عظيم قدر أخى النبى (ص) وصنوه ﴿حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ البقرة: ١٠٩. فليذهبوا فى أودية الباطل حيث شاؤوا ومن الهزء قولهم: إن النبى (ص) إنما راعى فى ذلك عادة عرب الجاهلية، وقد أعمالهم الغرض عن أن النبى (ص) إنما بعث لهدم الجاهلية وعاداتها الخبيثة، وما أقره (ص) مما كانوا عليه فإنما هو من تراث إسماعيل (عليه السلام)، ولو كان هذا منه لما خفى على النبى (ص) وعلى أصحابه الكرام، وقد كان لواؤه الخاص فى المواطن بيد أخيه على وولاء على اليمن، كما ولاه إصلاح ما أفسده خالد بن الوليد، وتهدد من تلكا عن الإسلام ببعثه عليهم خاصف النعل، وهو على، وقال: (هو عدیل نفسى وولى كل مؤمن بعدى) وتواتر قوله فيه (من كنت مولاه فهذا مولاه) الحديث متواتر ولم يول عليه أحداً طول حياته الشريفة، نفسى له الفداء إلى ما لا يحيط به الحصر من ومن ومن.

فيا عجباء لم ير المصنف جميع ما ذكرناه مع ما أحاط به علمه مما فى معناه ترشيحاً لعل للخلافة مع توفر شروطها فيه، واتصافه بجميع ما اتصف به غيره من الصفات الجميلة الحسنة، وعدم اجتماع ما فيه منها فى أحد أبداً.

وفهم واتضح له أن ما قيل من توليته لمن ولاه من بنى أمية لما سنذكره من الغرض لا أنها كانت ترشيحا للخلافة.

فمن أغرب الغرائب وأبعدها عن العقول والفطر السليمة أن يفهم أحد أو يقول، اتضح لى أن الأمة إنما استسلمت إلى بنى أمية أعداء الله ورسوله وأعداء الإسلام، وولتهم، وأقصت أخا نبيها، وأصدق صديق له، وقتلت ذريته وشردتهم لما تخيله المصنف.

وقد ولت الأمة أبا بكر وعمر، ثم عثمان بدون ترشيح إذ لم يولهم النبي (ص) أعمالا تذكر، ولم تفهم الأمة أن فى ذلك إقصاء لهم عن الأمر، وأن عمال الزكوات وجباة الخراج أحق به منهم، وكذلك لم يحتج أحد بشيء مما بنى عليه المصنف العلالى والقصور يوم السقيفة، ولا يوم الشورى، ولم يتضح لأحد منهم ما اتضح له، ولكن الوهم قد يربو فيغمر العقل فتتجسم له الخيالات.

وقد مات رسول الله (ص) وأسامة أمير على أبى بكر وعمر وكثير من المهاجرين والأنصار، ورايته عليهم معقودة، فلم يفهم هو ولا غيره أن ذلك ترشيح له للخلافة، وهو هو.

أما السبب فى تولية النبي (ص) من ولاه من بنى أمية، ومن ضارعهم فيما يظهر لنا فهو أنهم كانوا من الد أعداء المسلمين، وأشدهم نكاية فيهم فثارات المسلمين عندهم كثيرة، وحنقهم عليهم شديدة، وقد تقدم ذكر نموذج مما كانوا عليه، ثم كان إسلامهم عن قهر، وكره وغلبة، ولم تنزل تبدو منهم فلتات تدل على أنهم إنما أظهروا الإسلام وأسروا الكفر، فكان نزار المسلمين منهم عظيما، وكرههم لهم متا صلا، وتقززهم منهم مستمرا .

روى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال عمر بن الخطاب لأبى سفيان

ابن حرب، لا أحبك أبدا، رب ليلة غممت فيها رسول الله (ص).

فهل ترى عمر يعتقد صحة إسلام أبي سفيان، ثم لا يحبه أبدا لذنوب محاه الإسلام، حاشا ولكنه عرف نفاقه، وإصراره على ما كان عليه.

جاء في الأخبار الصحيحة أن جماعة من أصحاب الصفة مرّ بهم أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه فعضوا أيديهم عليه، وقالوا: وأسفاه كيف لم تأخذ السيوف مآخذها من عتق عدوّ الله، وكان معه أبو بكر، فقال لهم: اتقولون هذا لسيد البطحاء، فرفع قوله إلى رسول الله (ص) فأنكره، وقال لأبي بكر: انظر لا تكون أغضبتهم فتكون قد أغضبت ربك، فجاء أبو بكر إليهم وترضاهم، وسألهم أن يستغفروا له، فقالوا: غفر الله لك. رواه مسلم.

انترى رسول الله (ص) يقر ما قاله أهل الصفة لو كان أبو سفيان صحيح الإسلام حاشا وكلا، فأراد النبي (ص) من جهة تأليف قلوب أولئك الأعداء، ومداواة أودهم، ولددهم ومن جهة تخفيف نفرة المسلمين منهم، وتقريبهم إليهم، بتوليته لهم ولأهم عليه، ومن جهة ثالثة تضيقهم في الأطراف لئلا يتآلف منهم حزب ضلال وإضلال، ومن جهة رابعة إبعادهم عن المدينة لئلا يبقوا بها عيوناً وجواسيس للأعداء، ومأوى ومكمن لكل غادر خبيث، ولئلا يفسدوا قلوب من في قلوبهم مرض، من ضعفاء اليقين ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ التوبة: ٤٧.

وقد سبق ذكرنا لأن أكثر ما ولاه رسول الله (ص) أولئك الملموزين في دينهم المدخول إسلامهم ولم تكن ولايات ذات خطر، سيما في تلك الأعصار بل هي من جنس ما ولاه الخائن ابن التبيه، والفساق بنص القرآن ابن أبي معيط من جمع أعنز وضأن أباعر بسيرة صدقة من الأعراب، أو جزية قليلة لو حولت إلى عملة زمننا هذا لما ساوت

ما يستلمه محصل متوسط، أو هي أشبه بإمامة كفر صغير، أو عرافة عريف كتيبة تغير على طرف من الأطراف، وتحل حين تعود، فلا يجوز أن يبنى عليه أكثر مما ذكرناه مهما بالغنا فيه.

الرسول وبنى هاشم؛ وأما عدم إكثار النبي (ص) من تولية بنى هاشم واجلاء الصحابة، وتفريقهم فى الأطراف، فله اسباب، ولا يجوز أن يكون فى ذلك إقصاء لهم عن الخلافة، كما زعم المصنف اتضاح ذلك له، أو قطعاً لطمعهم فيها؛

منها: أن بقاءهم بجوار رسول الله (ص) يحفظون ما ينزل من القرآن، ويتلقون ما تجدد من السنة ليببلغوا ذلك إلى الأمة أهم وأكثر تفعلاً للأمة من تحصيل نعم الصدقة، ونحو ذلك.

ومنها: أن ذهاب أولئك الأقرباء والخووص إلى الأطراف يعزى به جانب رسول الله (ص) ويبقى بعدهم بين كثير من المنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل الضغائن المتريصين بالإيمان وأهله الدوائر.

ومن عرف أنه قد فر جمهور الصحابة عن رسول الله (ص) ولم يثبت معه إلا نفر قليل فى بعض المواطن، ثم فى حنين ولوا عنه مدبرين، ولم تمنعهم بيعة الحديبية عن الفرار، ولم يثبت معه إلا أناس من أهل بيته فقط، كما ثبت فى شعر العباس وغيره، فهل يكون من الصواب تفريق المحبين المخلصين الناصحين المستميتين فى نصر الله ورسوله فى السباسب والقفار وأطراف البلاد لجمع الزكوات، أو الجزية إن ذلك لبعيد عن الصواب.

وبهذا يظهر جلياً بطلان ما استنتجه المصنف رحمه الله، وبنى عليه ما بنى، وفيه

كفاية لمن يفهم، وينصف إن شاء الله تعالى.

وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من أحاديث الفتن وما فى معناها مما فيه نحو
بنى مروان على المنبر الشريف نزو القردة، أو اتخاذهم مال الله دولا وعباد الله خولا
لله، وقلبهم الدين ظهرا لبطن.

فإن كان فى ذكر انبياء بنى إسرائيل هلاك اليهود، وتحريب المسجد ترشيح
وتأسيس لملك بخت نصر.

أو كان فى ذكر رسول الله (ص) بنى قنظوراء تمهيد لاستيلائهم على الأمة
وإذلالها.

أو كان فى ذكره عليه وآله الصلاة والسلام المسيح الدجال إغراء للأمة على
الاستخذاء له، والتسليم إليه، ووضع زمامها بين يديه إن كان شىء مما ذكرناه كذلك.

فإن ما جاء من ذكر بنى أمية وعسفهم واستبدادهم وظلمهم وما صح من اتباع
الأمة سنن من قبلها تمهيد لملك بنى أمية، واستداد كل جبار وظالم، وكون هذا من أكبر
الباطل بين، فكذلك ما توهمه المصنف.

ومن الحق الذى لا شك فيه أن إخبار النبى (ص) بوقوع أمر يفيد أنه سيقع حتماً
بدون خلف، وفق ما أخبروا ولكن مجرد الخبر لا يفيد أن المخبر عنه حق أو باطل، نعم
إن اقتران الإخبار بالغبطة بالمخبر به، والتحبيذ له، والمدح له، أو الأمر به، فذلك الأمر
حق، والسعيد من وفق له.

وإن اقترن به ضد ما ذكر فهو ضلال والشقى من علق به.

وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من تولية أبى بكر رجلاً من بنى أمية أعمالاً فيمكن حمل شيء منها على ما تقدم بيانه فى تولية رسول الله (ص) لمن ولاه من المغموصين، ويجوز أن يكون لشيء منها مغزى سياسى، وتولية عمر يترأى أن جانب السياسة فى بعضها أظهر والله أعلم.

وأما عدم توليتها أهل بيت رسول الله (ص) الأعمال فلا أعلم له معنى دينياً، وفوق كل ذى علم عليم.

وما رواه عن ابن عمر أنه قال للحسين بن على: والله لا يليها أحد منكم. الخ، إن صح فهو غلط واضح، ومثله ما روى عن ابن عباس فى هذا المعنى، ويقرب كل القرب أن ذلك كذب موضوع، لأنه يبعد أن ينسى ترجمان القرآن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ النساء: ٥٤.

ولقد كان نبياً محمد (ص) مع كونه نبياً عبداً خالصاً. يحكم بين الناس بما أنزل الله، ويجبى الأموال ويقسمها كما أمر الله، ويقود الجيوش محارباً وغازياً لمن حاد الله، ولو كان لما زعموه عن ابن عمر وابن عباس أصل لما كان نبياً (ص) إلا كبعض أنبياء بنى إسرائيل الذين اقتصروا على إرشاد ملوكهم، ونصحهم، وليس لهم من الأمر شيء، وهيئات هيئات.

ولقد كان على عليه السلام صنو النبى (ص) وأخوه مع كونه أفضل من غيره قد لابس ما لابس من أمور الخلافة، ولم يك ذلك لهوانه على الله تعالى حاشا وكلا، وهكذا الأمام المنتظر عليه السلام، ولكنها الغفلة واستشعار عظمة من نسب إليه القول تحمل

المرء على قبول الكلام المتهافت الباطل.

وما ذيل به المصنف ما نقله عن ابن عمر وابن عباس، وهو لفظ: (وذلك من فقهما) كلمة فيها جفاء شديد، وهل يظن عالم عاقل مصنف أن الحسين ابن رسول الله، الذي خرج في سبيل الله مؤدياً للواجب العيني عليه، قليل الفقه فيما استشهد في سبيله حاشا وكلا.

ولعل المصنف وجد تلك الكلمة العوراء فيما نقل عنه من الكتب، فكتبها غافلاً عن مدلولها، كما فهم من خطبة الحسن بعد الصلح خلاف ما تدل عليه، ومثله فهمه من على الصدقات الإشارة إلى الإمامة العظمى، وكل ذلك خطأ باطل كما تقدم بيانه.

وما ذكره من أن سر خروج الخلافة عن أهل البيت هو لئلا يقال: ملك متوارث، وما في معنى ذلك فهو مما لا قيمة له، لأن الخلافة مقام ومنصب ديني، ولن يتم ويحصل منه الغرض إلا إذا قام به أخص الناس بالدين، وأولاهم بالمسلمين.

ولو كان لمثل تلك الترخصات والتفوهات حكم لما أوجب الله الصلاة على النبي وآل بيته (ص)، ولما جعل لهم الخمس، ولما افترض على الأمة حبهم فالجواب عن هذه الأمور هو الجواب عن الخلافة.

ومن المضحكات قوله: إن الخلافة صارت إلى بني العباس لضعف الدين لعدم استحقاقهم لأنه يفيد أن الضعف في الدين إنما حصل حينئذ مع أنه لم يزل وما كان سبب حصولها لنبي أمية شراً مما هو سبب حصولها لنبي العباس بل هذا ابن ذاك، والشر لا ينبت إلا شراً، فالضعف قديم، والماء صرف من الأعلى والداء مزمن جداً.

وما نقله المصنف عن البخارى عن الزهرى من إشارة العباس على على فى أيام مرض النبى (ص) بأن يسأله عن خليفته، وإباء على ذلك فغير صحيح عندنا لمعارضته لما هو أقوى منه مما لا تحوم التهم ولا الشكوك حوله مما يقوله على، ويكرره علانية، فى خطبه وكلامه، ومجموعه يوجب القطع بصدوره منه.

وهذا المصنف نفسه قد نقل عن البخارى وغيره عن الزهرى وغيره قول على للعباس فى محاورتهما فى أمر الخلافة، وه يطمع فيها غيرنا، أو ما معناه هذا على اختلاف الروايات، وليس بين صدور المقالة الأولى، وبين صدور الثانية، إلا ساعات غير كثيرة لو صح قولهم، ومن ذلك يظهر جليا للمتأمل المصنف أن بعض تلك الروايات كذب مخترع، وكذلك كل ما فى معناها، فإنما أحدثته السياسة، وصححته القوة، وروجه سماسرتها من متاجرى علماء السوء، وسهل ذلك الإرسال والتجويد بطنى أسماء رجال بعض سلسلة الإسناد إذا كانوا من طبقة واحدة فى المعاصرة، وكل هذا كان فى تلك الأيام مشهوراً.

والزهرى من أكبر رواة الصحيح، وقد كان من صنائع بنى مروان، وعمالهم، بل هو من المنقطعين إليهم، ومن التقريين إلى أهل الدنيا فلا غرو إن روى ما يروج به امرهم تزلفاً إليهم، أو دفعاً لشروهم عنه، أو إبعاداً لشكوكهم فيه.

جاء فى الكشاف فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَعَسَاكُمْ النَّارُ﴾ هود: ١١٣، قال: قال الحسن رحمه الله: جعل الله الدين بين لادين ﴿وَلَا تَطْفُوا... وَلَا تَرْكُنُوا﴾.

ولما خالط الزهرى السلاطين كتب له أخ فى الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعوا لك الله، ويرحمك، أصبحت شيخاً

كبيراً قد أثقلت نعم الله بما فهمك من كتابه، وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء^(١).

قال الله سبحانه: «تَبَيَّنْتُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ» [آل عمران: ١٨٧] واعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخف ما احتملت أنك آنتست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقاً، ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك قطباً تدور عليك رحا باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلماً يصعدون فيك إلى ظلالهم، ويدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال، إلى آخر ما قال. انتهى.

قال المحدثون: إن السند ولو كان كالشمس وضوحاً لا يفيد صحة المتن المنكر.

قال الحافظ بن عبد البر في الاتيعاب عند ذكره أحاديث مما رواه البخاري وغيره، وصححها غير واحد، قال: لا تصح لعدم صحة المعنى، أي ولا عبرة حينئذ بصحة السند.

ونقل ابن السبكي في الطبقات أن محمد بن حنبل أوصى أن يضرب على حديث أبي هريرة الذي فيه الإشارة إلى أمر الناس باعتزال قريش، مع أن رجاله ثقة، وما ذاك إلا لمخالفته المشهور من الأحاديث.

قال السيد محمد رشيد رضا: إننى أعلم أنه ليس كل ما صحح بعض المحدثين سنده يكون صحيحاً في نفسه، أو متفقاً على تعديل رجاله، فكأين من رواية صحح بعضهم سندها، وقال بعضهم بوضعها لعل في متنها، أو سندها، والجرح مقدم على ---

(١) انظر تاريخ الزهرى في تذكرة الحفاظ للذهبي وكتب الرجال. وانظر كتب التاريخ فترة عبد الملك بن مروان.

التعديل، بشرطه، وقد ذكروا من علامات الوضع ما ردوا به بعض الروايات الصحيحة الإسناد. انتهى.

وفى كتابنا العتب الجميل فى هذا المعنى ما يفيد المستفيد فليراجع ذلك من احب^(٢).

وما ذكره المصنف من قول العباس لعلّى - عليه السلام - : امدد يدك ابايعك، وامتناع على عليه السلام - فقد اختلف فى ايهما كان رايه الصواب، والذي يظهر لنا ان كليهما مصيباً من الجهة التى اعتمدها، ولكن علياً - عليه السلام - كان اتم إصابة، وابعد نظراً، واحكم رايًا، فإن العباس بنى رايه على حسن ظنه بالأمة، التى لم تر الخير إلا بواسطة رسول الله (ص) فلم يجوز منها ان تعرض عن اهل بيت نبيها، سيما صنوه واخيه، وافضل من تركه بعده، واكبر مجاهد بين يديه.

وعلى اخترق نظره الحجب فعرف جلية الأمر، وحقيقته، إما بفراسة صادقة، او بأخبار احيه له بذلك عن ربه جلّ جلاله، فعلم ما تكنه شجف الغيوب، وضماير القلوب، فحفظ بما صنعه الإسلام عن الزوال جزاء الله عن دينه وعن نبيه وعن المسلمين خير الجزاء، وما كان فعله ذلك اول خدمة ضحى فيها بكل نفيس غال.

وما رواه المصنف من قيام أبى سفيان على قبر حمزة وخطابه له، وقد تقدم نقله فالرواية الأولى لعلها كانت بالمعنى، تلطيفا للشناعة.

والرواية الثانية هى الصواب إن شاء الله تعالى، وفيها انه ركل قبر حمزة برجله اقتداءً ببليس فى ركله جسد آدم عليه السلام.

(٢) تم طبع الكتاب بالقاهرة وقد قمنا بالتعليق عليه.

ونرى ان ابا سفيان اراد بمخاطبته حمزة بقوله: إن الأمر الذى كنت تقاثلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم مقابلة خطاب رسول الله (ص) لأصحاب قليب بدر بقوله: «فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ» [الأعراف: ٤٤] وهذا غير كبير ممن وقض على حمزة هذا مقتولا ممثلا به، وقد اكلت زوجته هند كبده، وقطعت آراجه، ومذاكيره فجعلتها حليا لها فضرب بزج رمحه شديق حمزة، وقال: ذق عقق، ذق عقق، ومن القائل لعثمان بن عفان فيما رواه الحافظ بنعبد البر حين استخلف على الناس عثمان: ادرها كالكرة، واجعل اوتادها بنى امية، فإنما هو الملك، ولا أدى ما جنة، ولا نار.

وقد تقدم نقل المصنف لهذا المقالة.

وقد انتهينا من كتابة ما رأينا فى بيانه إفادة، وبقيت فى زوايا كلام المصنف كلام المصنف رحمه الله بقية لا حاجة بنا للكلام عليها مما أطال به فمنها ما هو بديهي البطلان متهافت، ومنها ما للكلام عليه محل آخر، ومنها ما هو صواب، وصحيح ثابت، وهو الموافق لما حققناه.

وتم تسويد هذه الوريقات مع استعجال، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله فما كان حقا وصوابا فمن الله وحده، وله الحمد والمنة وما كان باطلا وخطأ فمنى ومن الشيطان، واستغفر الله للعمد و الخطأ سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وكان الفراغ من تسويدها ظهر يوم الثلاثاء لثمان خلت من شهر صفر عام ١٣٣٧هـ وتم تبليغه ضحى يوم الاثنين لثلاث بقين من شهر رجب عام ١٣٤٢هـ فى سنغافورا والحمد لله أولا وآخرا، وصلاته وسلامه على محمد وآله، ومن تبعهم بإحسان، وكتبه بيده العبد محمد ابن عقيل بن يحيى عفا الله عنهم آمين.

فهرس موضوعات الكتاب

٥	- تقديم.....
٢٩	- النزاع والتخاصم
٣١	- مقدمة المؤلف
٣٢	- فصل فى أبى سفيان ومروان
٣٨	- جذور العداء
٥١	- فصل فى ذوي القربى
٥٨	- فصل فى استحقاق بنى أمية للخلافة.....
٦٠	- فصل فى عمال الرسول من بنى أمية.....
٦٦	- فصل فيما ورد فى بنى أمية.....
٦٩	- فصل الخلفاء وبنى أمية
٧١	- فصل اختصاص بنى هاشم
٧٦	- فصل فى خروج الخلافة
٧٩	- فصل فى بنى العباس
٩٥	- فصل فى اتفاق الخلافة الإسلامية مع الملة الموسوية.....
١٠١	- ملحق : فصل الحاكم فى النزاع والتخاصم

مطابع سجل العرب
٩ شارع عماد الدين - القاهرة - ج.م.ع
ت: ٩٣٢٧٠٦ د.ص.ب. ١٣١٥ العتبة

هذا الكتاب

يعرض الأسباب التي أحكمت
المنافرة بين بني هاشم وبني أمية
وانتقلت بعدها إلى الرسول (ص)
وآل البيت من بعده ..
وهو الكتاب الأول في موضوعه
على مستوى التراث الإسلامي فلم
يتعرض كاتب على المستوى القديم
والحديث لهذه القضية وذلك
بسبب السياسة والحكام والروايات ..
وقد آن الأوان ليلقى الضوء على
هذه القضية الهامة التي انعكست
على واقع الإسلام ومستقبله ..
آن الأوان لإعادة قراءة التاريخ
الإسلامي بمعزل عن السياسة
وأقوال الرجال ..

To: www.al-mostafa.com